أحلام الملكة النائمة

الكتاب: أحلام الملكة النائمة ، قصص قصيرة
الكاتب: أحمد الملك
الطبعة: الأولى 2019م

رقم الإيداع: 2019/000

دار الريم للنشر والتوزيع
السودان ـ أمدرمان

alreempublshing@gmail.com

imadeldenali@yahoo.com

00249912914599 - 00249122992190

إدارة: عماد أبو مدين
التصميم: محمد الصادق الحاج

حقوق النشر محفوظة للمؤلف والناشر ©
لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه، أو تخزينه كنسخة إلكترونية أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

إنّ **دار الريم للنشر** غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء والأفكار الواردة في هذا الكتاب عن وجهة نظر المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار.

قصص قصيرة

أحمد الـملك

أحلام الملكة النائمة

Alreem Publishing House
دار الريم
2019

إهـــداء

إلى ذكرى شهداء ثورة ديسمبر العظيمة.

المحتويات

العُشّاق لا يَسرقون	11
حكاية الخير والطاهر في الإندايَة	19
المدير والحمار القديم	27
المُغنّي والواتساب	34
ممنوع الموت يوم زواج العم بابكر	42
الحُبّ والفودكا	48
انقلاب في بوركينا فاسو	55
العقرب	67
جدّي والشاي ورئيس اللجنة الشعبية	76
الرحلة الطويلة نحو الشمس أو أحلام الملكة النائمة	81
أبـــي	87
لا حاجة بنا لرجال الشرطة	94
الشيطان وعسكري البلاستيك	102
زول طيّب	111
الكوز (المحترم) يواجه الإهانة في المحكمة	123
السرقة مباحة أثناء خسوف القمر	133

العُشّاق لا يَسرقون

كان الجاويش عبد الجبّار أول القادمين، بدأت حركة حذرة تدبّ في العالم النائم على حافة الفوضى. تسلّلت خيوط ضوء الصباح في الميدان الضخم في قلب المدينة. وارتفعت معها أصوات محركات العربات الكبيرة التي بدأت تصل إلى المكان، مختلطة بصياح الديكة والحمير، وغناء بعض السّكارى الذين لم يستطيعوا النوم طويلا بسبب الجوع وأشياء أخرى ففضّلوا الحضور للتفرج على المسافرين. إنها الرحلة الشهرية الثانية للشاويش عبد الجبّار التي يحضر فيها إلى العاصمة لاستلام رواتب رجال الشرطة في منطقته. قبل أشهر توفّي الجاويش عوض الكريم مدير نقطة الشرطة العتيد في القرية، وأصبح هو بالتالي الرئيس. الموت ليس سيئا دائما، فكّر وهو يتسلّم خطاب تعيينه في مكان الجاويش عوض الكريم رئيسا لنقطة الشرطة، لكنه كان يشعر أن مهمة جلب الرواتب ليس عملا يليق بفترة عمله الطويلة في الشرطة، والتي اشتهر فيها كجندي منضبط وكمحارب سابق في الحرب العالمية الثانية. لكنه وجدها فرصة لزيارة شهرية إلى العاصمة على نفقة الحكومة كان يقوم فيها بزيارة شقيقةٍ له تعيش هناك، وتعمل مع زوجها في عيادة

طبية لطبيب عيون مشهور. كانت أخته كل مرة تأخذه إلى الطبيب لإجراء كشف للنظر مجانا، وذات مرة غيّر له الطبيب نظارته الطبية، دون أن يدفع قرشا واحدا، بنظارة جديدة، أعطته مظهر ضابط برتبة كبيرة كما أكد له بعض من يعملون معه من جنود.

يحمل الجاويش عبد الجبّار مظروفا ضخما من الورق به رواتب جنود الشرطة، في المرة الأولى كان محظوظا، لم يوجد لصّ بين المسافرين، كانوا معظمهم حجّاجا قادمين من الأراضي المقدسة ولم تَبدُ عليهم العجلة بَعدُ لارتكاب ذنوب جديدة، خاصة وأن تكلفة غسل الذنوب أصبحت عالية بسبب ارتفاع نفقات الذهاب إلى الحج. وضع لفافة النقود آنذاك تحت رأسه ونام بعمق. تستغرق الرحلة ليلة واحدة، يقضيها الركاب في الصحراء، وصبيحة اليوم التالي تصل الشاحنة إلى وجهتها. بدأ الركاب في الوصول، عرف بحاسّته السادسة التي تكوّنت بفضل تعامله طوال سنوات مع اللصوص، أن ثمة لصّا بين الركّاب!.

يا للكارثة! لا يمكن إخفاء شيء في هذا العالم، لا بدّ أنّ خبر حمله للرواتب قد انتشر وأثار شهية بعضهم لجني أرباح سريعة من مال الحكومة، الذي يَعتقد البعض أن سرقته لا تدخل في باب الحرام؛ لأنه مال عام يخصّ الشعب كله وكل فرد من الشعب لديه حصة في المال العام، ولحسن الحظ لم يكن هناك قانون يستثني اللصوص من عضوية الشعب.

عرف أنه ربما لن يستطيع ممارسة هوايته الأثيرة: النوم في مكان متحرك، مثل الطفل. كان يشعر بالتعب بسرعة، ويصعب

عليه، بسبب السنّ وأشياء أخرى، أن يظلّ مستيقظا طوال الليل. حاول تحديد اللص بين الركّاب الذين جلسوا فوق البضاعة التي حُمّلت فوق الشاحنة في اليوم السابق. كان هناك فتى يحمل طنبورا، عرف من حياد حاسّته السادسة أن الفتى كان شخصا طيبا برغم الحزن في وجهه. ثم إنه يبدو عاشقا، والعُشّاق لا يَسرقون؛ حسب خبرته الطويلة مع اللصوص. عاشق واحد سرق مرة حذاء رئيس الشرطة أثناء أداء الصلاة في مسجد القرية، لكن تبين لاحقا أنه لم يكن عاشقا حقيقيا بل مرابيا وصل القرية بسبب معلن هو الحب وسبب غير معلن هو رغبته في الزواج من امرأة التقاها مرة في القطار وعرف أنها سترث من والدها الميت بضعة أفدنة والآلاف من أشجار النخيل والموالح.

العاشق لا يَسرق، قال عبد الجبّار في سرّه، ثم تحوّل بنظره إلى راكب آخر، رجل مُلتحٍ يحمل مسبحة في يده. ركّز نظره عليه في البداية، ثمة مقولة شعبية تقول إنّ من يطلق العنان للحيته يطلق العنان أيضا لأشياء أخرى، قد تكون اللحية ستارا للطمع. ترك الرجل المسنّ. ثمة امرأة جلست بعيدا عن الرجال، النساء لا يَسرقن إلا نادرا، قد يضربن رجالهن أحيانا إذا شربوا كثيرا وخاصة إذا لم يتمكّنوا من العودة إلى البيت آخر الليل وساعَدهم شخصٌ ما على الحضور، تلك فضيحة تُعالَج بالضرب. لا يوجد قانون يمنع إعادة تربية رجل متقدّم في السنّ. مرة واحدة سرقت امرأة فستانا لابنتها الصغيرة من السوق، لم يحرّر لها الجاويش عبد الجبّار بلاغا حين أمسك بها البائع وفي حوزتها الفستان المسروق، قام الجاويش عبد النبي بتسوية الأمر مع البائع ودفع له ثمن الفستان، لأن المرأة

كانت فقيرة جدا، لكنها استجابت لبكاء ابنتها الصغيرة التي تريد ارتداء فستان جديد يوم عيد الفطر، قال في سرّه: لو كنت مكانها لفعلت الشيء نفسه. ليس للفقراء من شيء سوى الانتظار، انتظار الفرج. هو نفسه كان فقيرا، الراتب الذي يحصل عليه يكفي بالكاد جزءا قليلا من منصرفات بيته القليلة، ورغم ذلك يضطرّ في الشتاء لزراعة حقل صغير حتى لا يضطرّ لشراء القمح.

حين يمرّ به بعض الناس وهو يعمل بهمّة في حقله، يقول له البعض: ومن سيحرسنا من اللصوص حتى تفرغ من زراعتك؟

كان يحلو له مداعبة محدِّثه: لا توجد مشكلة، هناك لصّ واحد في القرية، وهو موجود الآن بجانبي لحسن الحظ. ويضيف ضاحكا: وما دمتَ أنت بجانبي فإنني أؤدي عملي أيضا كشرطي بجانب عملي كمزارع!.

مرة غضب أحدهم حين داعبه بأنه لصّ وهددّه بأنه سيشكوه لرؤسائه لأنه يمارس عملا آخر يخلّ بانضباطه كشرطي، ضحك وقال لمحدّثه: ومن قال لك إنه يوجد انضباط، إنني حين أمارس عملا آخر أعمل مزارعا، مؤجِّلا بذلك سرقة مال الشرطة! بعض الجنود يَسْطون على السلطة في أوقات فراغهم، يصبحون رؤساء للبلاد ويُصدِرون أوامر جمهورية ينفّذها الجميع، عسكريون ومدنيون!.

قال محدّثه: لكن لم نسمع برجل شرطة قام بانقلاب!.

تأكّد عبد الجبّار من وجود لفافة النقود تحت إبطه وعاد لتفقّد

الركّاب. رأى فتاتين جلستا بعيدا عن الركّاب قريبا من المرأة المسنّة، لا بدّ أنهما عائدتان إلى القرية بعد زيارة أحد أقاربهما، يعرف إحداهما، فتاة طيبة لا تسيء معاملة الكلاب الضالة، إنما ترعاها وتطعمها، وتزيح الشوك والأحجار عن الطريق، برغم فقر أسرتها وذهابها دائما لرعي الغنم خارج القرية لكنها كانت تجد دائما وقتا لرعاية الكلاب الضالة، وللسَّمَر مع حماد الأعرج الذي يقضي سحابة نهاره تحت أشجار الجميز أو يطارد الكلاب الضالة. ذات مرة ألقم كلبا حجرا، تحطّمت بعض أسنان الكلب فساعدته الفتاة الصغيرة وأخرجت له الحجر من بين فكّيه.

إنّه ليس رجلا سيئا، رغم فقره ومطاردته الكلاب الضالة، لكنه يصبح عدوانيا أحيانا بسبب الملل وكراهيته لثمر الجميز؛ الغذاء الرئيسي له. ليس هنالك في القانون على كل حال ما يمنع ضرب الكلاب الضالة بالحجارة.

إذن إنه هو، قال عبد الجبّار حين رأى شخصا ذا شارب ضخم يجلس على مبعدة ويحاول ألا يبدو مباليا بمن حوله رغم أنه كان يتفحّص كل شيء، إنه الصافي الذي لا يعرف له أحدٌ في القرية عملا، لكنه رغم ذلك كان يرتدي دائما ملابس جديدة ويعيش في رغد ويمتلك جهاز تسجيل يرتفع صوته ليلا بأغاني الطنبور، حتى أن الصبية كانوا يتجمعون قريبا من بيته للاستماع إلى الغناء. يسافر كثيرا، البعض يقولون إنه يذهب إلى العاصمة ليقامر هناك وإنه يحب المقامرة وحظّه ممتاز حتى أن جميع من يلعبون معه كان الفقر يصيبهم بينما تتحسّن أحواله هو تدريجيا.

تحرّكت بوصلة حاسّته السادسة تجاه الصافي، لكنه لم يهمل أيضا مراقبة راكب آخر لم يتعرّف عليه، لا بدّ أنه أحد الذين يَحضرون إلى القرية أو إحدى القرى المجاورة في موسم قطع التمور ليتسلّم حصّته من التمر ويعود إلى المدينة.

بدأت الرحلة. مضى الوقت بطيئا، فيما العربة الضخمة تقطع التلال الرملية. درجة الحرارة عالية جدا، لكن النسيم الناجم عن حركة العربة يجعل الجو معتدلا. تفقّد الجاويش عبد الجبّار الركّاب مرة أخرى سرّا من موقعه خلف جوال مليء بالأحذية المطاطية. اكتشف أنّ الصافي كان يراقبه، يا للكارثة! لا بدّ أنه يفكر في طريقة لسرقة النقود ليلا. لو نجح الرجل في سرقة النقود سيفقد عبد الجبّار دون شك وظيفته، وربما يضطرّ للعمل طوال حياته ليسدّد المال للحكومة.

استغرقت المرأة العجوز في النوم، وتبعتها الفتاتان بعد قليل. وبسبب التراب الخفيف فوق شعر الفتاتين ووجهيهما بدتا وكأنهما تقدّمتا فجأة في السنّ بسبب جلوسهما جوار المرأة المسنّة!.

توقفت العربة في مقهى صحراوي ليتناول الركّاب طعامهم، كانت الشمس قد مالت إلى المغيب. نزل جميع الركّاب الذين شعروا بالإرهاق الشديد للأكل والراحة وقضاء الحاجة. بقي الجاويش عبد الجبّار قليلا؛ بزعم بحثه عن شيء ما في حقيبته، حتى نزل الركّاب جميعا واتجهوا إلى داخل المقهى، فيما انتشر بعضهم لقضاء حاجتهم في الخلاء. عرف الجاويش عبد الجبّار أنه بسبب إرهاقه الشديد لن يستطيع منع نفسه من النوم، وأن النقود

ستُسرَق دون شك إنْ هو نام للحظة واحدة. فكّر في مكان يضع فيه النقود، فكّر في وضعها في أحد جوالات البضاعة التي يجلسون فوقها أو إخفائها في أحد أجزاء السيارة، أو في الصندوق الذي يضع فيه سائق الشاحنة ومساعدوه مؤونتهم من الطعام.

بعد قليل نزل الجاويش عبد الجبّار من الشاحنة بعد أن أخفى النقود في المكان الذي اعتقد أنه سيكون الأكثر أمانا. كان الظلام قد أرخى سدوله وبزغ من بين التلال هلال جميل، حين استأنف البص رحلته. بمجرد بزوغ القمر بدأ الصبيّ يعزف على طنبوره، ويغني بصوت ملائكي، كأنه استجاب لأمر خفيّ من القمر بأن يستأنف الغناء. تسلّلت النغمات إلى قلب الجاويش عبد الجبّار مثل السحر فاستغرق فجأة في النوم.

ما إن مال الهلال إلى النصف الآخر من العالم وخفت ضوؤه، وتعالى غطيط الركّاب وتحوَّلت نغمات طنبور الفتى النائم إلى صدىً أشبه بالهمس، حتى تحرّك الصافي للعمل. فتّش كل شيء وكل شبر في العربة بحذر وخبرة متناهية، شعر عبد الجبار بشخص يفتّش حتى حذائه، لكنه لم يهتم به وواصل نومه. كان المساعدان يجلسان في المقدمة فوق صندوق المؤونة يتسامران ويخلدان لنوم متقطّع يقطعه صراخ السائق مناديا لهما في بعض الأحيان، بحث الصافي حولهما دون أن يجعلهما يشعران بشيء. فتّش متاع جميع الركّاب بدقّة وصبر، عثر على أحذية مطاط وأحذية محلية مصنعة من جلود الأبقار يحملها الركّاب هدايا لأقاربهم، عثر على نقود قليلة لم يلمسها، وساعات أطفال بلاستيكية رخيصة الثمن وملابس

داخلية متّسخة. لكنه لم يعثر أبدا على النقود التي يبحث عنها.

في الصباح، حين أشرقت الشمس على العربة المتربة، كان الصافي هو الوحيد المستغرق في النوم بسبب إرهاق سهر البحث عن النقود. توقفت الشاحنة بعد قليل في وجهتها النهائية، أيقظه الجاويش عبد الجبّار ثم أشار إلى حقيبة اللص وسأله: هل هذه حقيبتك؟.

قال الرجل المرهق من السهر: نعم.

أمره عبد الجبّار: افتحها.

فتح اللص حقيبته، مدّ الجاويش يده وسحب مظروف النقود من تحت ملابس اللص المكويّة والمرتبة بعناية داخل الحقيبة، وأعلن:

لم أجد مكانا أكثر أمانا لحفظ النقود من حقيبتك هذه!.

حكاية الخير والطاهر في الإندايّة

الخير والطاهر مزارعان نشيطان، يعملان بجدّ في فترة الشتاء، حتى يتسنّى لهما أن يرتاحا قليلا ويبتهجا في فترة الصيف. اعتادا على البهجة الموسمية حتى أنه كان من النادر رؤيتهما يضحكان أو يتبادلان الحديث أثناء فترة العمل الشاق في موسم الشتاء.

الخير والطاهر مزارعان طيبان، يتفقّدان أقاربهما المرضى، يؤدّيان صلاة الجمعة في المسجد ويؤدّيان صلاة العشاء في المسيد، وبعد الصلاة يُحْضران عشاءهما ليتناولا العشاء مع أهل القرية. إذا رغبا في تناول الخمور صيفا بدافع البهجة يفعلان ذلك دون إثارة مشاكل في الطريق ودون أن يتشاجرا مع أهل بيتيهما. كل من يزور القرية يعرف أن الخير والطاهر مزارعان طيّبان، رغم أن خبيثا محلّيا قال مرة إن المزارع الطيب يكون أحيانا مزارعا فاشلا لا ينجح في الزراعة، وبالتالي يضطرّ دائما لاستدانة قمح لخبز أطفاله واستدانة المال من جيرانه، وحين يضطر الإنسان للاستدانة يصبح طيبا وبشوشا يضحك بسرعة لأقل المواقف طرافة ويضحك أحيانا بدون سبب. وضرَب الخبيث مثلا بمزارع كان يستدين الأموال من البنوك وحين يحين وقت سدادها ولا يتوافر له المال يخرج

ليؤدّي الصلاة دائما بصوت جهوري في الشارع أمام بيته، حين يحضر رجال الشرطة للقبض عليه يجدونه غارقا في صلاته، ولأنهم يخافون على الأقل من الله فإنهم يؤجّلون إلقاء القبض عليه حتى يجدوه في مكان ما بعيدا عن الله.

قال الطاهر: الحمد لله يا زول الموسم نجح، أنا كنت خايف، البرد ما كان شديد السنة دي وأسعار الجاز اتضاعفت، لكن ربّك ستر، يمكن تأخير الزراعة نفعنا، لو كنا بكّرنا بالزراعة كان الحر خلّاها تعطش.

كانا على ظهر لوري متجه إلى الخرطوم يجلسان بفخر فوق نجاحهما؛ محصول الفول المصري.

مسح الخير شاربه الضخم بيده وقال: ربنا يستر والأسعار ما تنزل، لغاية قبل يومين كان السعر ماشي لي فوق، لكن السوق ما عنده ضمان، لو السعر نزل يا دوب حنقدر نسدّد البنك، معناها نطلع من الموسم بدون حمص ولا حنقدر نشتري حاجة ولا ندفع مصاريف المدارس للعيال.

قال الطاهر وكأنه يحلم: (أنا بَدور لي عربية!تعبت من ركوب الحمير) وَعَدت العيال قلت ليهم خلاص فُرجت!شيلوا مراح الحمير من قدّام البيت وأعملوا راكوبة للبوكس.

ضحك الخير وقال: أمبارح شُفت حلم عجيب، قال نحن جينا بِعْنا الفول ورجعنا خامّين قروش كتيرة أدّينا أي زول قابلنا في السكة منها، وبعد دا القروش ما نقصت، وَكِت رجعنا البلد

لقينا الناس اتغيرت، الطويل بقى قصير والقصير بقى طويل، حسن ود شيخ علي، شفتو واقف يبيع ليه خضار في السوق، وَكِت سلّمت عليه جيت قُصَاد رجليه، الزول بقى طويل مِثْل النخلة، سألتو قلت ليه: الحصل عليك شنو؟ قال لي: والله ظروف!.

ضحك الطاهر ولاحظ: الناس وَكِت تكبر تعقل إلا هو، كلما ليه ماشي يجنّ!.

في اليوم التالي باعا المحصول بأفضل قليلا من السعر الذي حلما به، وضعا النقود في حقيبة صغيرة أمسك بها الطاهر بكلتا يديه وضمّها إلى صدره، قال الخير: أعمل حسابك قالوا البلد دي مليانة حرامية!.

ضحك الطاهر وقال: وحراميّتها الحكمة قالوا ولا محتاجين!

قررا العودة إلى بيت قريبهما الذي يقيمان معه مشيا على الأقدام، خوفا من النشّالين. في الطريق قال الطاهر: قالوا في بيوت شراب سمحة خلاص في الجيهات دي، نمشي الليلة نشرب ونفرح شوية بعد تعب الموسم، وبكرة نركب الباص ونرجع البلد.

تحمّس الخير للفكرة، ثم تردد قليلا وقال: بس ندّي القروش دي لزول أمين قبل ما نمشي. استعرضا سكّان البيت الذي يقيمان فيه.

قال الخير: الولد الكبير دا باين عليه ابن كلب، لو لقى قريشاتنا دي يقع بيها النسوان!.

وستّ البيت جنّها عِدّة، قالوا لو الزول نسى عندها هدوم ولا

أيّ شي تبدّل بيه العِدّة طوالي!.

قال الطاهر: ندّيها الحاجّة الكبيرة، لأنها اليوم كله قاعدة عشان عندها الرطوبة، ما بتطلع من البيت وقالوا ولدها من السعودية برسّل ليها كل فترة قريشات بس قاعدة حارساهم، وَكِت أحفادها يقولوا ليها يا حبّوبة أدّينا قروش تقول ليهم: القروش نجيبها من وين.

تسلّمت الحاجة النقود وحذّرها الخير: حتى لو جيناك يا والدة وقلنا دايرين قروش ما تدّينا، سلّميها لينا بس وَكِت نكون ماشين على البص.

ذهبا إلى بيت الشراب، استقبلتهما فتاة جميلة رغم مظهرها الفقير. جلسا وبدآ يعبّان الشراب وكأنهما لم يشربا شيئا منذ مائة عام. همس الخير في أذن الطاهر: نعمل حسابنا القريشات المعانا دي دايرين نشتري منها تذاكر البص وشوية حاجات للعيال.

بعد قليل غنّت الفتاة الجميلة على إيقاع الدلّوكة التي عزفت عليها امرأة ضخمة الجثة ورجل نحيل الجسم، وجهه صغير وجاف بعكس وجه المرأة الضخم. غنّت الفتاة بصوت ساحر:

طلعَت القَمْرة، الخير يا عشايا

تودّينا لأهلنا. . بيسألوك منّنا..

نهض الخير كمن لدغته عقرب وأفرغ جيبه الأيسر فوق الفتاة، غرق المكان في أوراق العملة الجديدة، وتعالى صخب الغناء والرقص.

في اليوم التالي حين استيقظا من النوم عرفا أنهما لا يزالان على قيد الحياة بمجرد أن استأنفا الشراب. لم يبق سوى وعي قليل عرفا من خلاله أنّ نقودهما نفدت. يستطيع المزارع النشيط أن يتصرّف حين تواجهه مشكلة: بدآ في استدانة الشراب، بعد يوم آخر كانت الاستدانة قد تجاوزت كل الخطوط الحمر وامتلأ الجدار الذي شهد شروعهما في البهجة، وشهد أيضا اكتشافهما للمرة الأولى موهبتهما في الغناء حين شاركا الفتاة الجميلة الغناء وسط استحسان الحضور الغائب عن الوعي.

اشترطت صاحبة البيت أن يسدّدا ما عليهما قبل أن يشربا نقطة خمر أخرى، لم يكن هناك من حل آخر، سيعودان إلى البيت لإحضار النقود، لكن صاحبة البيت لاحظت: وما الضمان أن تعودا مرة أخرى؟.

وجد الخير أنها محقّة فالغالب أنهما لن يستطيعا العودة مرة أخرى، لأنّ قريبتهما العجوز لن تعطيهما النقود إلا وهما يغادران لركوب البص إلى القرية كما اتفقا معها.

توصّلا في النهاية لاتفاق مع صاحبة البيت، سيبقى الطاهر في الانتظار وسيذهب الخير لإحضار المال!.

قالت العجوز حين جاء الخير مهرولا يسحب عمامته أرضا: ولا مليم أحمر ما بَدّيك!.

صرخ الخير: كيفِن ما تدّيني، الطاهر مرهون!.

انتهرته قبل أن تعطيه ما يكفي لفك الرهن: راجل شايب

وعايب، عيالك راجينّك هناك وإنت صايع في الأنادي.

تحمّل الخير الموعظة الإجبارية بصبر حتى قبض المال، ثم تبخّر من أمامها.

بعد سداد الدَّين تبقى مبلغ قليل اقترح الطاهر أن يكملا به سهرة تلك الليلة وينطلقا عائدَيْن صباحا، لكن في الصباح بدا لهما الخروج من تلك الجنة قرارا غير محتمل، قال الطاهر: نحن تعبنا سنة كاملة من حقّنا نرتاح شوية، وبعدين الدنيا دي ذاتها فايدتها شنو، أخير نستمتع لينا كمان يوم وبعداك نتوكّل، الأولاد قاعدين وحنمشى نلقى نفس المشاكل، دا طردوه من المدرسة عشان ما دفع رسوم الكتب، ودا عشان ما دفع رسوم الدروس الأضافية. وافقه الخير بسرعةٍ تعطي انطباعا بأنه لم يكن هناك من داع لمرافعة الطاهر الطويلة.

حين انقضى اليوم الثالث كان مؤشّر ديون البهجة قد عاد للارتفاع في الحائط حتى لامس السقف، انقطع إمداد الطاقة: لا يوجد شراب قبل سداد الديون، أعلنت ستّ الأندايا. لملم الطاهر عمامته من الأرض وأصلح وضع ثيابه، كان قد استعاد وعيا إجباريا قبل أن يعلن: كفاية لغاية كدا، بعد دا السفر وجب، نمشي نجيب للناس ديل باقي قروشهم ونسافر، لكن ستّ البيت المجرّبة أوضحت أنه يجب أن يبقى أحدهما ويذهب الآخر لإحضار المال.

عرض الخير في البداية أن يذهب لكنه تذكّر العجوز التي ستحقّق معه وستتهمه بتبديد أموال أولاده في الشراب، لذلك اقترح على الطاهر أن يذهب. اقترح الطاهر أن يكذب على العجوز

ويقول لها إن الخير سافر فجأة بسبب مرض أحد أولاده وأنه يجب أن يلحق به فورا. لاحظ الخير: إنْ وافقت العجوز معنى ذلك أنك ستحضر بقية المبلغ كله وفي هذه الحالة يجب أن نسافر فورا حتى لا يضيع المال كله.

اختفى الطاهر، وبقي الخير في الانتظار. مضت ثلاثة أيام ولم يظهر الطاهر فبدأ القلق يساور الخير، لم يعدم محسنا عابرا يسقيه على حسابه فاستأنف بهجة نهارية خائفة ونسي الطاهر ليلا.

حين وصل الطاهر إلى بيت أقربائه لم يجد أحدا بالبيت وبقي يخبط على الباب عدة ساعات دون أن يجيب أحد، اضطرّ للانتظار ساعات طويلة حتى يحلّ الظلام ليتمكّن من دخول البيت عن طريق الجدار. بعد قليل من دخوله إلى البيت، وقبل أن يعرف ماذا حدث لأهل البيت، فوجئ بصوت أقدام وصراخ وخبط شديد على الباب، كان شابّ مارّ بالمكان قد رآه وهو يتسلّق الجدار، وذهب بسرعة لاستنفار عدد من الجيران وشباب الحي فجاءوا يحملون العصيّ، أذهلت المفاجأة الطاهر فلم يتمكن من قول شيء، ولم يمهله مهاجموه فرصة وسط صرخات: حرامي.. حرامي. ضربوه ضربا مبرحا حتى فقد الوعي.

بعد زمن لم يستطع تحديده استعاد وعيه. كان ضوء النهار قويا حتى أنه غطى عينيه بيديه ثم بدأ يتأمّل المكان حوله ليعرف أين هو، وما الذي جاء به إلى هنا. عرف من رائحة الدواء القوية أنه في في مستشفى، انتبه عندها إلى يده الموضوعة في جبيرة من الجبص. قبل أن يبدأ في التذكّر، لم يعرف كم يوما مضى وهو في المستشفى،

لا بدّ أنه تعرّض لحادث ما. قطَع عليه تسلسل أفكاره صوت جاره يسأله عن حاله، شكَره بإيماءة من وجهه، قبل أن يلاحظ أنه لم يكن راغبا في أن يتحدث إلى أي شخص، ربما خوفا مما حدث له، دون أن يتذكّر بالضبط ما الذي حدث، انتبه فجأة إلى شيء ما، أشار لجاره بأصبعيه ففهم الجار الإشارة بسرعة وأحضر له سيجارة وضعها في فمه ثم مدّ فمه آليا ليشعل له جارة السيجارة، أراح رأسه على الوسادة وطفق يرقب حلقات دخان سيجارته وهي تتلوى مخترقة فضاء العنبر.

المدير والحمار القديم

في اليوم الذي شاع فيه خبر جنونه، ذهبنا لاستدعائه بناءً على طلب المدير. بحسبانه المدرّس الأقدم في المدرسة، كان يجب تذكّره بمجرد حدوث مشكلة ما. لكنه كان، بسبب الحبّ كما سمعنا في القرية، قد فقد عقله. كانت سناء؛ الفتاة الجميلة التي خطبها قبل سنوات، قد تزوّجت قبل أيام من رجل يعمل خارج الوطن.

في كل الأحوال لم يكشف مظهره عن أي جنون، كان يرتدي جلبابا نظيفا ويضع على رأسه عمامة لونها أقرب إلى اللون السماوي بفضل مادة الزهر، الشيء الوحيد الخطأ أنه لم يكن موجودا في المكان المناسب، كان يلعب لوحده لعبة الأريكا التي تلعبها الفتيات في أزقة القرية، وقفنا قليلا متردّدين ثم فاجأه أقلُّنا رعبا بلغة فصيحة شبيهة بالتي يستخدمها هو شخصيا في دروس اللغة العربية:

يريد المدير أن يتحدّث إليك!.

لم يرفع عينيه ولا حتى لينظر إلينا، قال وهو يحجل برجل واحدة دافعا قطعة الطوب الصغيرة بالقدم الأخرى، مثيرا عاصفة صغيرة من التراب:

(بلا مدير بلا حمار قديم!).

حين عدنا إلى المدير وجدناه على وشك أن يغادر المدرسة، لم يَبدُ عليه أنه فهم العلاقة بينه شخصيا وبين حمار قديم. أخبرَنا أن شقيق والدته، وهو شيخ مسنّ أفنى عمره هائما في العالم منذ أن هرب من منزل ذويه قبل أكثر من نصف قرن، قد توفِّي، وأنه سيذهب لحضور تشييع الجثمان في قرية مجاورة، وسيبقى هناك لمدة ثلاثة أيام يجب أن يتولّى فيها أستاذ العوض مسئولية إدارة المدرسة. كانت المدرسة تعتمد على عدد من المعلمين المتعاونين الذين يظهرون ثم يختفون على حسب المواسم والظروف وأحيانا كانوا يختفون لفترات طويلة جدا. كان المدير وأستاذ العوض هما الوحيدان الصامدان. الصمود الذى يفسّره أستاذ العوض بمناسبة وبدون مناسبة بأنه كان إجباريا:

جميع معارفي يعملون في الزراعة أو ليس لديهم عمل، لا أعرف شخصا يمكنه مساعدتي على السفر!.

غادر المدير المدرسة على عجل طالبا أن نعود إلى أستاذ العوض لنُبلِغه بأن يعود فورا لتحمّل مسئولياته كمدير للمدرسة.

بدت له الفكرة جيدة حين عدنا إليه، حتى أنه توقّف مندهشا على رجل واحدة تاركا الغبار الذي تثيره قدمه الطويلة يسبقه، تساءل بفرح:

يعني أنا بقيت المدير!.

عاد معنا، في زفّة مرتجلة، وبدا في المقدمة مثل زعيم شعبي يعود

من منفاه بعد سنوات من إزاحته من السلطة بانقلاب عسكري.

في اليوم الأول بدا مرتبكا حتى أنه لم يُصدر أية قرارات. ولأنه لم يعلم بالضبط ما الذي يجب أن يقوم به، فقد مرّ على كل فصول المدرسة أثناء الدرس الأخير طالبا من التلاميذ العودة في الغد إلى المدرسة!.

فى الصباح استمر طابور المدرسة أكثر من ساعة، كان الجميع سعداء بحرية البقاء خارج الفصول رغم الشمس المحرقة، لم يهتم في استعراضه للطابور بفحص الملابس أو طرد التلاميذ الذين لا ينتعلون أحذية لائقة، أو البحث عن القمل في شعر التلاميذ، بدا مهتما فقط بالمشي جيئة وذهابا دون هدف حول صفوف التلاميذ حاملا عصا طويلة أعطته مظهر سمسار للماشية. أصدر قرارا بأن ندير الطابور منذ تلك اللحظة بأنفسنا تاركا للتلاميذ مهمة اختيار تلميذ كل أسبوع ليدير الطابور فى الأسبوع التالي.

قضينا بقية اليوم في اللعب، فيما قضى المدير الجديد اليوم كله داخل مكتبه. لاحظ التلاميذ الذين كانوا يُقدّمون له أكواب الشاي والقهوة، أنه كان مشغولا بمحاولة إفراغ معاناته على الورق، وأنه بذل جهدا خارقا لمحاولة كتابة قصيدة شعرية ممزّقا أكواما من الورق من أجل إحراز إدانة نهائية للحب، وفي بعض الأحيان كنا نستمع إلى صوت غناء مفاجئ يعقبه نواح خفيف ثم إيقاعات سريعة أشبه بالمارشات العسكرية كان يعزفها في ما يبدو على منضدة مكتب المدير. في اليوم الثاني جاء يحمل علبة بلاستيكية تُستخدم في نقل الخمور المحلية. أشار لنا بعصاه حين

توقّف الطابور لنستمر قائلا:

تصرّفوا كما لو أنني لست موجودا.

ثم أشار إلى الخمر التي يحملها في يده وأعلن بلغة فصيحة:

اليوم سأعاقر الخمر!

قضينا اليوم بطوله في اللعب ولم نكترث حتى لصخب الميلاد الموسيقي المتعسّر للقصيدة الجديدة في مكتب المدير. في نهاية اليوم أبلغَنا بأن نَحضُر إلى المدرسة في اليوم التالي!.

أعلن أحد التلاميذ: بهذه الطريقة سينتهي بنا الحال أن نحبّ المدرسة!.

فى اليوم الثالث كان قد استنفذ كل مخزون الورق فى مكتب المدير دون أن يحرز تقدّما في اتجاه إعلان شعري جديد للحب. خرج من مكتبه يحمل صفّارة من البوص وعصا صغيرة، بدا أن ثلاثة أيام فى السُّلطة كانت كافية لتندمل معظم جروح قلبه. كنا نتأهّب للدخول إلى فصولنا بعد طابور الصباح الذى أداره أكبر التلاميذ سنا، لحين اختيار تلميذ غيره بالانتخاب. أشار إلينا أستاذ العوض بعصاه لنتبعه. سرنا خلفه وهو يعزف على الصفّارة، كان منظرنا ونحن نزحف خلفه أشبه بمشهد الفئران التي يسحبها ساحر بمزماره إلى النهر.

حين وصلنا إلى شاطئ النهر أشار لنا بعصاه فوقفنا فى طابور بينما مضى هو يخلع ثيابه غير عابئ بصيادى الأسماك الذين وقفوا يرقبوننا من على البعد؛ ولا بالنسوة المشغولات بلقيط محصول ثمار

الويكة من الجروف.

ألقى بنفسه فى الماء وسبح باتجاه المياه العميقة.

وقفنا نرقبه وهو يختفي مبتعدا، حتى تحوّل إلى نقطة ضوء تحرسها صفحة المياة الهادئة.

غرق المكان في لجة هرج ومرج وساحة للصراع والغناء قبل أن يظهر أستاذ العوض مرة أخرى دون أن يراه أحد أثناء عودته.

قاد بصفّارته المبتلّة التلاميذ مرة أخرى في رحلة العودة. تغيّرت أنغام العودة عن أنغام الرحلة الأولى واتخذت منحى فرايحيا، أوحى بأنه غسَل آخر أحزان قلبه وأنه مستعدّ مجددا للوقوع في الحب بقلب نظيف ومشاعر جديدة. في طريق العودة مضينا ننسج من ألحانه صورة فتاته الجديدة التي مضى ينثرها في الهواء لتختلط بأنسام النهر وعبق الأرض ونوّار شجر النيم.

عاد المدير في اليوم التالي واختفى أستاذ العوض. قال المدير إن أستاذ العوض قد حصل على عطلة قصيرة بسبب مرضه، وأن مدرّسا آخر سيحل مكانه خلال أيام. ثم سمعنا في القرية أنه تفرغ للبحث عن زوجة، وأنه يجوب القرى القريبة ومناسبات الزواج عازفا على مزماره بحثا عن فتاة أحلامه النهرية، وأنه يشارك في مهرجانات الحصاد كمغنّ متطوّع بحثا عن فتاة أحلامه، وأنه مضى من خلال أغنياته المرتجلة ينشر تفاصيل وجهها الجميل، وأنه يواصل رحلته بتصميم وقوة حتى بعد أن ألقى رجال الأمن في إحدى المدن القبض عليه بسبب اعتقاد خاطئ بأنه يدعو في أغنياته

العاطفية إلى الثورة على النظام العسكري.

بعد أيام اضطرّ المدير إلى المغادرة مرة أخرى، كان شقيق والدته الآخر قد توفِّي بعد سنوات طويلة من الغياب بحثا عن شقيقه، وفي حين عاد الغائب الأول ليموت في القرية بقي الآخر يبحث عنه في العالم دون أن يعلم بأنه عاد إلى القرية. ثم عمل بحارا في سفينة شحن إنكليزية ونسي المهمة التي غادر بسببها وطنه.

طلب منّا المدير أن نبحث عن أستاذ العوض في القرية ونطلب منه الحضور إلى المدرسة لمقابلة المدير.

عثرنا عليه في مزرعة غرب القرية، كان يحمل طنبورا ويغني للصبية والفتيات المشغولين بدرس محصول الشّمار بأقدامهم. كان المشهد يبدو بديعا برغم فوضى الغناء، حيث الصبية يغنون في اتجاه وهو يغني في اتجاه آخر. اقتربنا منه وفاجأناه أثناء الأغنية:

يطلب منك المدير العودة إلى المدرسة!.

جاء ردّه من داخل الأغنية التى كان يحكي فيها قصة لصّ سرق فردة حذائه أثناء زيارة عابرة له إلى المدينة، متهما اللصّ ضمنا بالغباء:

(شيل الجوز لو عندك فهم!).

دون أن يغيّر من إيقاع لحنه، ردّ على سؤالنا له، حتى أن الكثيرين لم يلاحظوا قوله ضمن الأغنية:

(بلا مدير بلا حمار قديم!).

فَهِم بعد قليل أن الموت يتيح له مرة أخرى فرصة أن يصبح مديرا، وضع طنبوره أرضا حتى يُصلِح من وضع عمامته التي كان يسحبها على الأرض. ثم حمل طنبوره وسار معنا في زفّة من الغبار ونغمات الطنبور والأغنيات المرتجلة.

المُغنّي والواتساب

حين رأى المغني ضوء الشمس يتسلل عبر فروع أشجار النيم، وعرف أن يوما جديدا بدأ، ردّد آليا عبارة يرددها باستمرار العازف الذي يعمل معه: (ستفرج غدا!).

لم تكن هناك أي إشارات لهذا الفرج المزعوم الذي ظل يتوقعه طوال الصيف، كما أنه لم يكن يفعل شيئا، ولم يغادر منزله حتى منذ عدة أيام للبحث عن عمل يساعد قليلا في ظهور الفرج. حين سمع صوت تليفونه النقّال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة بسبب فراغ بطاريته، التي يتعذّر شحنها بسبب انقطاع الكهرباء في البيت بسبب عدم دفع فواتير الكهرباء؛ قرّر أنّ منظر أشعة الشمس التي تتسلّل مثل فراشات سعيدة بين فروع شجرة النيم، يستحق أن يؤلف من أجله أغنية تدين حتى العولمة:

حبيبي كان أجمل كثيرا
حين رأيت صورته في الواتساب

هو وجهاز التليفون يشكوان الجوع، لحسن الحظ في حين توقّف جهاز التليفون، كان هو لا يزال يعمل، بطاقة قليلة، لكي

يحافظ عليها كان يتعمّد إبقاء جسده في الفراش طوال اليوم، دون أن يتحرّك من مكانه إلا للضرورة القصوى. وبما أنه لم يكن يأكل شيئا فإنه لم يكن محتاجا ولا حتى ليذهب إلى المرحاض. بقي في فراشه بطاقته المتناقصة حتى إنه لم يستطع أن يردّ على تحية عازفه الذي ظهر فجأة في صالة البيت، بتحية أفضل من تحيته أو حتى أسوأ منها. اكتفى فقط بابتسامة صغيرة دون أن يغيّر شيئا من وضع جسده الصامت. دهش لأنه لم يسمع صوت الباب حين دخل العازف، لا بدّ أنّ تشغيل الجسم بطاقة قليلة يخفّض حتى من قدرات حاسة السمع!.

أعلن عازف الأورغ: (لديّ أخبار سارة).

تساءل المغني بكسل: (هل قرر أحدهم أخيرا الزواج؟).

(لا. . قرّر أحدهم أخيرا الطلاق!).

(هل سنغني أيضا حين يحدث الطلاق؟ هل يوجد حفل طلاق؟ لا بد أن هذه إحدى إفرازات العولمة!).

(لا، إنه فلان، ورث مالا عن والده، وشقيقه يعمل خارج الوطن. لقد طلّق زوجته بالأمس).

(لقد غنّينا قبل عام في زواجه، كانت فتاة جميلة لها أنف طويل، لماذا طلقها؟).

(ربما بسبب أنفها، يقال إنها تدسّ أنفها الطويل في شؤونه الخاصة. هو يحب النساء).

(مؤكّد أنه سيتزوج قريبا، لا يستطيع العيش وحيدا، لديهم بيت

كبير، وليس لديه أطفال. حسب قوله يجب أن تكون هناك امرأة ما، تجلس في الفناء لتمشّط شعرها الطويل، وتقطف أوراق نبات الملوخية، وتتذمّر دون توقف لكي تكون هناك حياة في البيت).

بدأ المغني يردد مقاطع أغنيته الجديدة، ربما استعدادا لحفل الزواج المرتقب:

حبيبي كان أجمل كثيرا
حين رأيت صورته في الواتساب!

(وكيف سنعيش حتى يقرّر زير النساء هذا الزواج؟ لا يوجد دقيق في هذا البيت!).

قال عازف الأورغ: (سوف تفرج غدا!).

(ولماذا لا تفرج اليوم؟).

(يحتاج الفرج لبعض العمل لكي يتحرك قليلا).

(وماذا سنفعل، هل نطوف في الأسواق ونقول للناس لدينا عرض جيد، سنحيي حفلتَيْن بسعر حفلة واحدة لمن يتزوّج هذا الصيف!).

(الناس فقراء جدا، مجرد أن تبقى على قيد الحياة الآن هو إنجاز عظيم. لا يفكر أحد في الزواج، إن كنت أجد صعوبة في تأمين الخبز لي، كيف سأفكر في إنجاب أطفال؟).

(تعوّدنا أن يحضر بعض من يعملون في الخارج في فترة الصيف للزواج، أين ذهب الجميع؟!).

(وهل توقف أهل الحكومة أيضا عن الزواج، لديهم كثير من المال!).

(لم يتوقّفوا لكنهم يفضّلون إحضار مطرب معروف من المدينة!لكي يتحدث الناس عن العرس طويلا يجب أن يكون المغني معروفا).

(لكنني أيضا كتبت اليوم أغنية جديدة، ربما تجعلني مشهورا، يتبادل الناس صوري في مواقع التواصل:

حبيبي كان أجمل كثيرا
حين رأيته في الواتساب.

فكّر عازف الأورغ بسرعة وبدأ يردد لحنا سريعا اكتشفه في ذاكرته.

قال: (لديّ فكرة؛ ما رأيك أن نذهب لنغني في السوق اليوم؟ سيكون ذلك جيدا. ربما حين يشعر الناس ببعض البهجة وينسون مشاكل حياتهم الكثيرة، ربما سيفكر أحدهم في الزواج، حين يكون الإنسان سعيدا سيفكر في الحب!).

(لكننا يجب في هذه الحالة أن نغني مجانا مدى الحياة، لأننا لو توقفنا لحظة واحدة سيتذكر الناس مشاكل حياتهم ويعودون للحزن مرة أخرى).

(البعض حين يشعر بالفرح يستمر لديه ذلك الشعور بعض الوقت حتى وإن كان غارقا في التعاسة!).

(لنفترض أنّ ذلك صحيح، وأن أحدهم شعر بالسعادة، رغم

تعاسته، وفكر في الحب والزواج، من أين سيدفع لنا أجر الحفل، إن كان يملك فقط رصيدا من الحب والفرح، لكنه لا يملك أوراقا مالية؟!).

فكر عازف الأورغ قليلا وقال: (سيساعده الناس، بإمكانه أن يستدين!ما دام يستدين ليأكل، بإمكانه أن يستدين ليحب، الحب قيمة سامية تبقى على مر السنين).

(لا أستطيع الاحتفاظ بقيم سامية كثيرة لفترة طويلة حين أكون جائعا!).

(لكن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان!).

(أعرف ذلك، الخبز وحده ليس كافيا، يجب أن يكون هناك قليل من اللحم أحيانا، وبعض حساء الخضراوات. بعض النساء ماهرات، يستطعن عمل حساء من أي شيء، حتى من أوراق الشجر).

(أقصد أن غذاء الروح هو الأهم من الغذاء العادي!).

(الكلام سهل، هل تناولت طعاما اليوم؟).

(نعم أرسل أخي من الخارج مالا لأمي، فطبخت لنا لحم الدجاج مع الأرز!).

(بإمكانك إذن أن تتحدث عن غذاء الروح، ما دمت لا تشعر بالجوع مثلي!في المرة القادمة حين تطبخ أمك الدجاج بالأرز يجب أن تتذكر أن رفيقك المغني يتضور جوعا حتى قاع روحه. الشمس رائعة ورائحة زهور الليمون والبرتقال جميلة والقمر رائع حين

يضيء الفناء، كلها أشياء جميلة لكنها لا تصلح للأكل، لقد شبعت روحي حتى خفت أن أتقيأ من تخمة روحي!لكن بطني لا يزال فارغا ولا زلت جائعا!).

قال عازف الأورغ: (سنذهب لنغني في السوق، وحين يشعر الناس بالسعادة سنجد مالا يكفي لشراء شيء يؤكل!).

قال المغني: (وهل ستسمح لنا الحكومة أن نغني ونجعل الناس سعداء؟).

(الحكومة ستكسب، حين يشعر الناس بالسعادة لن يفكر أحدهم في الثورة!).

(بالعكس حين ينسى الناس مشاكلهم اليومية، التي تشغلهم طوال الوقت سيكون لديهم وقت ليفكروا في من تسبب في مشاكلهم وأحزانهم اليومية، سيتذكرون حريتهم المفقودة!).

وهكذا تحامَل المغني على جسده المرهق بسبب الجوع وخرج مع العازف الذي حمل معه آلة الأكورديون. في السوق تجمّع حولهما بعض الأطفال وبعض العطالى. وقف البعض يراقبونهم من على البعد وهما يغنيان في الساحة الصغيرة في مدخل السوق. ارتجل المغني عدة مقاطع وألحان لأغنيته التي تدين خداع العولمة وغنّاها بسرعة:

حبيبي كان أجمل كثيرا
حين رأيت صورته في الواتساب
لكنني حين التقيته في السوق

كان يبدو أكبر قليلا
والأسوأ أن رجله اليسرى
كانت من الأخشاب!

كان يكفي أن يقول إن الرِّجل اليسرى من الخشب، لكن كلمة أخشاب كانت تعطي وقعا مشابها لكلمة واتساب.

وقف المارة يرقبون مظاهرة الغناء السوقي من على البعد. ربما كانوا يخشون أن يطالبهم المغني بدفع ثمن البهجة إن أظهروا أي تعاطف مع العرض المرتجل، لذلك لبثوا يرقبون العرض في طرب صامت. وجد البعض أن بالإمكان الشعور بالبهجة والسلام من الداخل، دون أن يضطر الإنسان إلى إظهار بهجته بالرقص. الرقص في مثل هذا المكان سيثير الغبار وربما تعتقد الحكومة إذا ارتفع الغبار في المكان، أن هناك مظاهرة بسبب غلاء المعيشة، وقد يعتقلون بعض الناس بتهمة الابتهاج دون سبب واضح.

لكنْ شيئا فشيئا بدأ الناس يقتربون، لقد لعبت حرارة الأداء دورا كبيرا. تقدم الناس، وسرعان ما قام صبي بالخطوة الأولى حين ابتدر الرقص، نظر إليه الناس بدهشة كأنه يقوم بعمل غريب رغم أنهم كانوا يودّون عمل الأمر نفسه، ثم ضاقت الحلقة أكثر وتقدَّم صبية آخرون للرقص، ثم فجأة انخرط الجميع في الرقص. حتى الباعة تركوا بضاعتهم المغشوشة أرضا وانخرطوا في الرقص، حتى بائع اللحم الخائف أن يُقْدم أحدهم على سرقة قطعة لحم، أو أن يخطف أحد الكلاب الضالة التي يعجّ بها المكان قطعة عظم، ترك كل شيء وانخرط في الرقص. وفي حمى الطرب، حمل بعض

المارّة المغني والعازف فوق أعناقهم. شعر المغني وعازفه بالسعادة بسبب التجاوب الذي لم يتوقعاه. لكن المغني كان لا يزال يشعر بالجوع الشديد حتى إن صوته أصبح جافا جدا بسبب الجوع والغبار.

لكن أحدا لم يكترث لتغير صوته، كان الناس جميعا يشعرون بالبهجة وبشعور لذيذ أنهم تركوا أحزانهم اليومية خارج مدار هذه البهجة المجانية المرتجلة.

ممنوع الموت يوم زواج العم بابكر

أخيرا أيها السادة سينتهي انتظار قريتنا الطويل: سنحتفل بزواج العم بابكر، النائب السابق في الجمعية التأسيسية. سيكون زواجا تاريخيا، ليس فقط لأن معظم من هرموا في حمى انتظار حضور هذه اللحظة العظيمة، انتقلوا إمّا إلى الدار الآخرة أو إلى النسيان، بل لأنّ مجرد إعلان الزواج كان يمثل لحظة انتصار يتيمة على عدد من الكوارث الوطنية التي حالت طوال سنوات دون إتمام الزواج.

الجو يبدو رائعا، لا توجد إشارات أعاصير أو هبوب، نهر النيل يبدو هادئا لا خطط لديه لفيضان مفاجئ يُغرق الجزر والبيوت ويؤدّي لتأجيل زواج العم بابكر مثلما حدث قبل عشر سنوات. الناس جميعا يَبدون في صحة جيدة بفضل الضوابط الجديدة التي طبقناها بالكشف على كل مسافر يحضر إلى القرية بواسطة طبيب متطوّع، لضمان عدم وجود أية إصابة بالكوليرا تؤدّي لوفيات مفاجئة تؤدّي لتأجيل الزواج مثلما حدث عدة مرات طوال الأعوام الماضية.

تأكّدنا من عمل لجنة البعوض المنوط بها تجفيف البرك

والمستنقعات التي خلّفها فيضان النيل، والتأكد أنه لا يوجد بعوض ناقل للملاريا في القرية، لتجنب ملاريا وبائية تؤدّي لتأجيل الزواج مثلما حدث في العام الماضي. كان عمل اللجنة متقنا لدرجة أننا اكتشفنا أنهم قد جفّفوا نهر النيل نفسه في بعض المناطق التي يتحول فيها بحذاء غابة السنط، إلى مستنقع يعجّ بمختلف الحشرات الوطنية الطائرة والزاحفة.

في العام الماضي أُصيب شقيق العروس بملاريا خبيثة، جعلته يدّعي النبوة بصورة غير متوقعة، فقد اعتلى أعلى شجرة نخيل في القرية ليخطب في الناس ويدعوهم إلى دينه الجديد، واعدا بالحصول على دعم سماوي للقضاء على الأوبئة المهمة الثلاثة: الجوع والكوليرا والجنجويد. بعد تقديم موعظته الأولى، بقى ساكنا مثل طائر يحضن البيض في عشه، دون أن يكترث لأي من المصائب الدنيوية في الأسفل، والتي كانت جديرة باهتمام أي نبي مسئول، حيث رجال الشرطة الشعبية يطاردون الباعة المتجولين، وحيث الأرامل اللائي كن يحملن عريضة يقدّمنها في كل مناسبة في القرية تطالب بإعادة أزواجهن المفقودين في مختلف الحروب الأهلية. كما تجمّع أشخاص كانوا يحملون عريضة يطالبون فيها بضرورة إضافة حزب الحكومة والجراد إلى قائمة الأوبئة الوطنية. كان برنامجه إصلاحيا يقوم على استعادة كل المال العام المسروق وتحقيق عدالة أرضية بين جميع المواطنين. أعلن أحد الحضور أنه من المحزن أنّ الشخص الوحيد في القرية الذي يقول كلاما عاقلا، قد فقد عقله. لسوء الحظ لم يتمكّن من تنفيذ برنامجه فقد كان جنونه مؤقتا، قد تُسبّب الملاريا جنونا مؤقتا لكن الدواء المستخدم

لعلاجها يسبّب أحيانا جنونا دائما، وفي كل الأحوال لم يتسنّ له تبليغ دعوته. حين ادّعى أنه نبي في البداية لم يكترث له أحد، لكنه حين بدأ يتحدث عن الفساد واستغلال السلطة وجرائم الحرب، هرع رجال الأمن واستخدموا سلالم المطافئ لإنزاله من علياء جنته وأخذوه معهم، لقد سبق لهم اعتقال رجل ألقى قصيدة شعرية في احتفال مدرسي منتقدا النظام، كما اعتقلوا ضابطا سابقا في الجيش تحدّث يوم السوق عن الجرائم التي ترتكبها ميلشيات النظام، واعتقلوا مرة مدرّسا ومزارعا وسائق جرّار زراعي بتهمة قيادتهم لنشاط معادٍ للدولة، لكن تلك كانت المرة الأولى التي يعتقلون فيها نبيا.

حين عاد مرة أخرى إلى القرية بعد عدة أشهر من الاعتقال، بدا مثل شخص آخر لم يفقد الرغبة فقط في تغيير العالم بل في تغيير حتى ملابسه، انزوى في ركن قصيّ في المسيد بملابسه المتسخة، المعطونة بالعرق والطين وبقايا دماء التعذيب الذي تعرّض له في معتقلات الأمن، كان يرفع الأذان أحيانا ويكتفي بمراقبة الداخلين والخارجين من المكان في معظم الأحيان.

حين انتشر خبر نبي النخلة في القرى المجاورة هرع الناس لاستشارة المعجزة، جاء المرضى يبحثون عن أدوية منخفضة التكلفة بسبب ارتفاع سعر الدواء، وجاءت نسوة فاتهنّ قطار الزواج، بحثا عن معجزة قطارات اللحظة الأخيرة، وجاء رجل كان قد طُرد من الجيش قبل سنوات طالبا دعما لتدبير انقلاب لا يُبقي ولا يذر، غزا رجال الشرطة المكان بأعداد كبيرة، كنا نظنّ أنهم جاءوا لمنع انتشار

الفوضى لكننا اكتشفنا أنهم جاءوا لمصادرة بضائع الباعة الذين لم يحصلوا على ترخيص للبيع في ساحة نبي النخلة.

بدأت الفرقة الموسيقية العزف منذ ثلاثة أيام لطرد أية احتمالات للموت طبقا لشائعة أن الموت لا يقترب أبدا من المناطق الغارقة في الفرح وضجيج الموسيقى، ولتجنّب تكرار واقعة وفاة عازف الأكورديون الوحيد، الذي استُجلب في المرة السابقة من قريته، وأثناء حضورة بحماره إلى القرية ضربت الحمار صاعقة استوائية أدّت إلى وفاة الحمار والعازف فورا، واحتراق الأكورديون، فأُجِّل الزواج احتراما لذكرى العازف، وذكرى الحمار الذي كان حمارا شهيرا بقوته الخارقة وفحولته الوطنية المفرطة وبأنه أب غير شرعي لكل أبنائه من الحمير في المنطقة.

علّقت اللجنة يافطة قماشية في مدخل القرية على أعلى شجرة سيسَبان، ويافطة أخرى فوق كثبان الرمال التي تشكل الحدود الشرقية للقرية، مكتوب على اليافطة: ممنوع الموت أو استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بين اليافطتين!.

كان ذلك قرارا اتخذته اللجنة لمنع تداول أية أخبار أو مفاجآت تؤدّي لتأجيل الحفل، على أن يسري القرار منذ لحظة صدوره وحتى نهاية حفل الزواج فجر اليوم التالي. ولتنفيذ القرار تعيّن طرد جميع الأشخاص الأكثر تأهيلا للموت من القرية واستضافتهم في قرية مجاورة في منزل هجره أصحابه منذ سنوات.

جاء العم بابكر إلى مكان الاحتفال مستندا على كتف وزيره الأول، كان مصرّا على عدم إجراء أي تعديل وزاري، واستخدام

نفس الوزير الذي اختاره في المرة الأولى حين أُجِّل الزواج قبل سنوات بسبب اعتقال العم بابكر بعد وقوع الانقلاب العسكري الذي أطاح بالنظام الديمقراطي وجميعته التأسيسية التي كان العم بابكر نائبا فيها. شاخ الوزير الأول نفسه حتى أنه استند على كتف أحد أصدقائه كان قد شاخ أيضا فاستند هو أيضا على كتف شخص آخر، حتى بدا المشهد مثل مظاهرة للمسنّين ضد استئناف الفرح المتأخر.

أخيرا جلس العريس بجانب عروسه، كانت العروس قد بذلت جهدا تجميليا مضنيا للحفاظ على جزء من بريق سحر ابتسامتها القديمة قبل وقوع الانقلاب الإنقاذي. بينما احتفظ العريس من ملامحه القديمة فقط بشارب ضخم حرص على صبغه باللون الأسود لإضفاء مسحة شبابية متأخّرة على مظهره، رغم أن الوزير حذّره من مخاطر صبغة الشعر مذّكرا له بقصة العريس الذي نسي شاربه المصبوغ في حمى الزفاف، ففارق الحياة قبل نهاية الحفل حين أقدم على تمرير لسانه فوق الشارب المسموم، بسبب الارتباك والخوف من الحياة الجديدة بعد العيش وحيدا طوال سنوات من الحرمان!.

فجأة سمعنا صوت طلقات رصاص!يا للكارثة!لا بد أنهم رجال الجيش جاءوا بحثا عن الشباب لإرسالهم إلى الحرب!أو الجنجويد يطاردون بعض مهرّبي البشر!أمرنا باستئناف الفرح رغم تزايد صوت إطلاق الرصاص في الخارج. رفعنا صوت مكبرات الصوت حتى تجاوزنا المدى المسموح به بسبب القرار الحكومي

الخاص بحظر الفرح بعد منتصف الليل!(بسبب انشغال الناس بمصاعب المعيشة كان الفرح نادرا أيضا خلال النهار). لحسن الحظ كان العريس ووزراؤه ونواب وزرائه ومساعدوه يعانون جميعا من ضعف السمع، فلم يسمعوا صوت إطلاق الرصاص في الخارج.

تقدمت لجنة الزفاف في شكل حلقة حول العريس ووزرائه، وبالهتاف والتصفيق صنعنا جدارا صوتيا حول المكان، بينما كان العريس المرتبك بسبب الضجيج وقيظ الأجساد، يدور رافعا سيفه داخل الحلقة، يتفحّص الأجساد المتراصّة، وكأنه يريد فتح ثغرة في الجدار البشري من حوله ليلوذ بالفرار.

الحُبّ والفودكا

يوسكا جاء من اليابان، جاء لدراسة فنّ تدريب كرة القدم، هو لاعب في إحدى الفرق الصغيرة، ويريد أن يصبح مدربا لكرة القدم، لم أكن أعرف أن الكرة تحتاج إلى قراءة، بل قليل من الموهبة وبعض (الفهلوة). قال له فورال؛ صديقنا التركي الذي يرتدي ملابس أنيقة مثل نجوم السينما، أثناء تمرين لتحسين مهارات استخدام اللغة: هل تريد أن تصبح لاعب كرة مشهور؟

أزاح يوسكا ساندوتش البيرغر من فمه متجاهلا تحذير المدرّسة بعدم الأكل أثناء درس اللغة وقال: نعم أريد أن أكون مشهورا مثل رونالدو أو زين الدين زيدان.

في هذه الحالة، قال فورال مستخدما لغة سيئة بحيث أن المدرّسة أصلحت له الجملة سبع مرات بعدد الكلمات التي استعملها في صياغته البائسة: يجب إذن أن تبتعد عن النساء! غامزا من طرف خفي إلى أنّا صديقة يوسكا الأسترالية الجميلة.

عرفتُ بعد عدة أشهر أن دوافعه لقول ذلك لم تكن كلها بريئة، شرحَت لي أنّا ذلك ببساطة أثناء احتفالنا بعيد ميلاد يوسكا: حاول

فورال خطب ودّها أولا. قالت عنه بود: إنه فتي وسيم، محبّ للنكتة، أنيق يذكّرها كلما رأته بأحد نجوم السينما. لكنه، قالت: مملّ مثل الجحيم، بعد خمس دقائق من الجلوس معه تكون النكات الجديدة التي يحفظها قد نفدت، تصبح أناقته عادية، وجهه عادي، تي شيرتاته عادية، باختصار لا يمكن احتماله أكثر من الساعة المخصصة للدرس دون الحصول على استراحة!.

قلت له بعد ذلك: هل أنت مجنون؟

قال: كيف؟.

كيف تحذّره من النساء في وجود نساء شرقيات معنا في نفس الغرفة (سيدة صومالية وسيدة سودانية وسيدة مغربية). ضحك وقال: نساؤك الشرقيات كن الأكثر ضحكا من كلامي!.

كان دوري هو التالي في التحاور مع يوسكا لاختبار المقدرات اللغوية، كان يمثل دَور طبيب، وأنا مريض أشكو عدة عاهات مستديمة. حسبت في البداية أنه سيعالجني بالوخز بالإبر، بدا لي العلاج سيئا، ليس خوفا منه بل بسبب عدم إلمامي بمفردات كافية من اللغة للتحدث في مثل هذا الأمر الشائك.

عليّ أن أتصل تليفونيا في البداية لتحديد موعد لمقابلة الطبيب، سيردّ هو نفسه بطريقة فظّة لا تشبه طريقة سكرتيرة طبيب الأسرة، سيوضح الأمر لاحقا: لم يسبق له أن مرض أبدا! ليس الفضل لليوجا أو التمارين الرياضية أو أسلوب الحياة الياباني القائم على حبّ العمل والتقاليد الأسرية وقهر النفس، بل، كما سيوضح

بإنكليزية متكسّرة تتخلّلها عبارات بالهولندية وإشارات باليابانية: بسبب الحب!.

صباح الخير اسمي أحمد.

صباح الخير اسمي أنّا (اختار اسم صديقته كاسم لسكرتيرة الطبيب).

فكّرت في ما يجب أن أقول، مفروض أن أقول إنني زبون للطبيب وأريد عمل موعد معه. وجدت تركيب كل هذا الكلام صعبا قليلا فقلت بدلا عن ذلك: إنني مريض.

ضحك يوسكا أو الممرضة وقال في الطرف الآخر من الخط: لقد فهمت ذلك بمجرد اتصالك، فنحن لسنا محلّا للجزارة، لا بدّ أنك مريض ما دمت اتصلت بنا!.

قلت في سرّي: (إذن يوجد رباطاب أيضا في اليابان).

قلت بلغة غير حكيمة: أريد عمل موعد مع الطبيب.

نبّهتني المدرّسة إلى أن طريقتي الشاعرية في طلب الموعد تصلح للحبّ لا لشخص مريض يريد عمل موعد مع طبيب ياباني. أعدت السؤال مع تهدّج في الصوت لشخص مريض لا لشخص عاشق دون أن أفهم كيف يمكن تمييز الفرق!.

يبدو أنه يشكو قلة الزبائن كما أشرت له إذ حدّد لي موعدا على الفور!، هذه المرة ارتكب هو الخطأ الشاعري الأخير، بدلا من أن يقول إلى اللقاء قال: الجو رائع اليوم!.

إنها العبارة التي يستخدمها يوميا لمحاولة التقرب إلى فتيات أخريات أثناء رحلته اليومية بالقطار إلى المعهد الذي يدرس فيه فنون كرة القدم.

عنّفته المدرسة على التحية الرقيقة: يجدر بسكرتير الطبيب أن يكون محدّد العبارات ولطيفا في الوقت نفسه، يمكنه أن يمزح قليلا مع الزبون لكن ليس على الهاتف في وقت ربما يكون فيه مرضى آخرون في الانتظار.

لم يعالجني بالوخز بالإبر، بدلا من ذلك عالجني بالوخز بالكلمات: استقبلَني في البداية في العيادة بالعبارات المستخدمة لخدمة زبون في متجر للأدوات الكهربائية: كيف أستطيع خدمتك يا سيدي؟ عرفت أن العبارة لم تكن صحيحة لأنّ المدرّسة ضحكت، أشرت إلى رأسي وقلت: أشعر بصداع شديد.

قال: هل تشرب الفودكا؟.

قلت: لا. دون أن أعرف إن كان يصفها كداء أم كدواء.

قال جرّب شراب الفودكا، إنها مفيدة لعلاج آلام البطن والأسنان. أوضح أن صديقا إنكليزيا يَدرُس معه فنون كرة القدم نصحه بشراب الفودكا لعلاج الأنفلونزا: علّق أمامك على الحائط معطفا وابدأ في شراب الفودكا، حين يصبح المعطف معطفين، ينتهي العلاج، تصبح بخير.

أوضحت له بأدب شديد أنني لا أعاني من الأنفلونزا.

نظر في وجهي وقال: ربما لا تعلم. ثم وضع قلما كان يحمله في

يده جانبا، وقال: ما دمت تعرف مرضك ما حاجتك إلى طبيب إذن؟.

أشرت له إلى إصابتي بمرض جلدي في اليد. نظر إليه شزراً وكرر نفس العلاج: امسح المكان بالفودكا!.

لعلاج فشله في علاجي أشرتُ له مستخدما كل طاقتي اللغوية في أن يعود إلى مقاعد الدراسة لتلقّي العلم من جديد إن كان يريد أن يصبح طبيبا!، طبّق نصيحتي على الفور بصورة سيئة محاكيا أطباء الأسرة في هولندا، وغالبهم متقدّمون في السنذ ولم تُتح لهم فرص السماع ببعض الأمراض. قلّب في كتاب اللغة أمامه قبل أن يعلن لي آسفا: المرض الذي تشكو منه غير موجود في الكتاب!.

مؤكدا بحزم: كل الأمراض موجودة في هذا الكتاب!.

نصحني بشراب الشاي والماء واستخدام دواء باراسيتامول. وودّعني عند الباب قائلا: لا تنسّ الدواء المجرّب الذي يصلح أيضا للعشاق: الفودكا. ثم قال لي: هل جرّبت الحب؟ وقال بحكمة مجرّب: الحب علاج، لكن حين يصبح مرضاً لا دواء سوى الفودكا!.

لا يفترقان هو وأنّا. يبدوان، وهما يعبران دون أن يكترثا لضجة الطلبة في بهو المدرسة المزدحم بأصناف البشر، كأنهما يطفوان خارج الزمن، تراهما في كل مكان، حول جداول الماء في الحديقة الصغيرة القريبة من القرية، في المركز التجاري يأكلان سندوتشات البيرغر ويراقبان العالم من خلال شمس مارس الناصعة، لا يمكن

تخيُّل العالم دون حبهما، تشاجَرا مرة واحدة في حضوري، جاءا لزيارتي، تركتهما قليلا لأعدّ القهوة، وحين عدت كانت أنّا تبكي وهو يحاول استرضاءها بصوت حزين، أحضرت لهما ألوانا وورقا ليرسما بطاقات الدعوة لعيد ميلاده، أنّا تجيد الرسم، تجيد أيضا كما حكت لي حياكة الملابس، تعلمَت ذلك من جدتها التي عاشت معها في ضواحي سيدني لسنوات قبل أن تموت جدّتها وتنتقل هي للعيش في أوروبا مع أقارب قاموا بتبنّيها. صنعت ليوسكا قميصا من الصوف الملوّن وكتبت اسمها واسمه مستخدمة بدلا من الحروف العادية زهورا ملونة، يرتديها يوسكا بفخر دون أن يهتم بأنه يبدو داخلها أصغر سنا وأقل حكمة. وهو يذرع الفناء أثناء استراحات التدخين تصحبه كآبة خطواته اليابانية القصيرة.

تعمل أنّا بعد المدرسة، يذهب هو لانتظارها حين تخرج من مصنع البسكويت الذي تعمل فيه، يذهبان إلى المكتبة العامة للدخول إلى الانترنت أو يجلسان في مقهي صغير في المركز التجاري، وحين تحسَّن الجو في الربيع تعلّما الذهاب يوميا إلى الحديقة العامة القريبة من القرية. يذهب معها أحيانا إلى الكنيسة، تذهب هي لأنّ والدها بالتبني هو الذي يقرأ قدّاس الأحد، يستمتعان بعزف البيانو وبالأناشيد الدينية.

حين جاء الصيف أكمل يوسكا دراسته، سيعود إلى اليابان. ذهبت لوداعه في محطة القطار الصغيرة، كانا يبكيان، رغم أنه مفروض ألا يفترقا طويلا، سيرسل لها يوسكا خلال أسابيع دعوة لتحضر إلى اليابان. وربما تبقي هناك إلى الأبد، كما قال يوسكا.

كان وداعا حارا وباكيا، وظلت أنّا تُلوّح للقطار حتى اختفى من أنظارنا، التقيتها بعد أسابيع من سفر يوسكا، وقالت إنه أكمل إجراءات الدعوة وستصلها خلال أيام، اختفت أنّا ولم أعد أراها فقلت لا بدّ أنها الآن في اليابان، وأن العالم استعاد شكله بمجرد أن اجتمع أعذب عاشقين في العالم. بعد أشهر ظهرت أنّا في القرية وبدا عليها حزن وكآبة لم تفصح عن أسبابها، وحين سألتها عن يوسكا قالت إنها لم تتصل به منذ أشهر ثم ودّعتني قائلة إنها ستعود إلى أستراليا.

بعد حوالي العام تلقّيت منها رسالة على البريد الإلكتروني شرحَت فيه ما حصل: بدأ يوسكا في اليابان إجراءات حضورها إلى هناك، وفجأة، فيما كانت تستعد للسفر إليه، تلقّت منه رسالة من سطرين يقول فيها إنه آسف لإنهاء علاقته... بها!.

فكّرت بعد شهور: لا بدّ أن هذا الطبيب الفاشل استخدم علاجه الكلاسيكي: الفودكا!.

انقلاب في بوركينا فاسو

أخرج سليمان التاجر جهاز تلفزيون صغيرا يعمل بالبطارية من بيته القريب ووضعه في الباحة أمام المسيد.

في جهاز التلفزيون ظهر رجل يشرح أن سبب الغلاء والابتلاءات هو ابتعاد الناس عن الدين!.

قال سليمان الأعرج: ابتعدنا مشينا وين؟ ما هو نحن قاعدين هسّع فوق برش الصلاة في المسيد! في زمن الإنقاذ دا بقينا كلنا زي خليفة المهدي، قاعدين فوق برش الصلاة راجين الموت!.

وقال حاج سعيد: وطيّب مش قالوا البلاء يعم؟ ولا ناس الحكومة بياخدوا حقن تحصين ضد البلاء!.

ضحك الطاهر وقال: ديل زمان قطّعوا فاتورة البلاء مع فاتورة البترول!.

اقترب صلاح الجاز محدّقا في التلفزيون وقال: الزول دا أعور، مش كدا؟!

لم يرد أحد على صلاح في البداية، ثم قال حاج سعيد: الزمن

دا يا صلاح الناس بالجوع بقت ما شايفة قدّامها، الناس ماشة ساكت، كلهم خارج التغطية زي ما بيقولوا في التليفونات، لو عرفت القدّامك دا زول ولا ما زول ما خلّيت شي. قبل أيام لقيت الحنين، بيشاكل في زول بصوت عالي، ويقول ليه: (ليه ما ربطت الحمار كويس، الحمار شرد ودخل في برسيم حاج الطيب، وودّوه الكارة). مافي زول ظاهر، قلت يمكن بيتشاكل مع ولده يكون واقف ورا حاجة أنا ما شايفها، وَكِت بقيت قريب، ما لقيت زول، قلت ليه: (إنت بتشاكل منو؟)، اتخلع وبقى يعاين حواليه وقال لي: (الولد كان واقف هسّع)، عاينّا حوالينا ما في أثر للولد في الأرض، لكن لقينا الحمار حايم قريب في الزراعة! وأثره في الأرض! الظاهر شاف الحمار افتكره ولده!.

استمعوا قليلا إلى حديث الرجل في التلفزيون، ثم قال حاج سعيد: طيّب الإنگليز ديل ما مسلمين وبعد دا الدنيا في زمنهم كانت بخيرها، وكت الفيضان شال بيت أبوي مشى قدّم طلب أدّوه تعويض! وإذا في مرة دايرة تلد يضربوا للإسعاف بالتليفون العنده منَفلّة يجي الإسعاف يودّيها المستشفى، تولد وتقعد في المستشفى مجان. هسّع الإسعاف لو جا يودّيك الآخرة! يدّوك حقنة غلط تروح فيها، ولو أهلك ما دفعوا تمن الحقنة الغلط ما يسلّموهم جنازتك! هسع ما بيرْجوا الفيضان، بيجوا برَاهم يشيلوا بيتك، يقولوا دايرين نعمل طريق! ولو قدّمت طلب بدل التعويض يقولوا ليك مُر علينا بعد فترة، ترجع بعد زمن يقولوا ليك مافي طلب باسمك اكتب طلب جديد، وفي النهاية ما بتطلع منهم بشي. ولو ما جا فيضان يغرّق بيتك بيبنوا ليك سد، وعشان

ما يعوّضوك بيحرقوا النخيل قبّال يبنوا السد، ويقولوا ليك بيتك قديم جالوص وعوَضك على الله! دي قسمتك!.

قال سليمان الأعرج: الأولاد الودّيناهم يقروا الجامعة على حسابنا أول ما خلصوا القراية ومسكوا الحكم، باعوا الجامعة ذاتها! ديل زي أولاد العقرب، أول ما يطلعوا من بطن أمهم، ياكلوها، بعدين ينطلقوا عشان يلدغوا الناس من طرف!.

بقت على الجامعة؟ البلد ذاتها مبيوعة ونحن قاعدين فيها بالدين! البحر دا ذاته قالوا مبيوع، خايف نصحى يوم نلقاه خلا!.

ابتسم الطاهر، أخيراً خبر سار: حسين ود عبد الرسول قالوا لقى ليه كتلة دهب كبيرة يمكن عشرة ولا عشرين كيلو!.

ربنا فتحها عليه، زي الكيزان! بس هو جابها بضراعه، مشى الخلا بحمار ورجع بي بوكس!.

قال الطاهر: أبوه كان مخاصمُه عشان أبى يجي يزرع معاه، وهو ذاته كان ماخِدْ في خاطره لأن أبوه اتزوّج فوق أمّه وطلّقها! وكت الولد شاكلُه وقال ليه يرجّع أمّه، قال للولد ما معافيك دنيا ولا آخرة! أها أول ما سمع بخبر الدهب مشى للولد حضنه وقال ليه: عافيت منك الدنيا والآخرة!.

قال سليمان التاجر: الولد قبل يومين ضرب لي تليفون قال داير رصيد وسكّر وشوية حاجات للبيت، وقال لي: رسّلها مع الولد. ولدي عبد الرحمن مشى القش، شلت الحاجات ومشيت خبطت الباب مافي زول فتح لي، وأنا سامع صوته هو وأبوه يتكلموا.

دفرت الباب وخشيت لقيت حسين راقد بالسروال وأبوه بارك فوقه يدلّك ليه في ضهره!.

ضحك سليمان الأعرج وقال: بركات الدهب! سبحان الله! أيام الفلس كانوا كلما يتقابلوا يتشكلوا! مرّة واقف جنب عبدالرسول في الحوّاشة كان ماسك الموية، جا حسين قعد في الواطة يمرق ليه شوكة من كراعه، أبوه قال ليه بتعمل في إيه؟ قال ليه: بمرق لي في شوكة.

أبوه قال ليه: شوكة في قنّيطتك!.

عبد الرسول اتلفت كدا والولد قام عليه بالعكاز وقال ليه: ما تصلّح ملافظك ياخينا!.

ضحك سليمان التاجر وقال: مرّة قاعدين معاي في الدكان، حسين قال عاوز يسافر العمرة، بعدين يتكلم مع أبوه زي صاحبه قال ليه: ما تقوم يا عبد الرسول الله يهديك بيع حتة الواطة بتاعتك دي، أصلك وارثها من أبوك ما داقي فيها حجر دغش! بيعها وادّينا القروش نسافر بيها! والقروش إن شاء الله تلقاها قدّام!.

عبد الرسول قال ليه: أودّيها وين قدّام وأنا منيوك هنا! بعدين سكت شوية وقال لحسين:

يا ولدي في زول بيكره ولده؟، عليّ الطلاق أنا كرهتك!.

حسين قال ليه: والله نفس الشعور يا أبوي!.

ضحك حاج سعيد وقال: ما محبّة إلا بعد عداوة! بعد الدهب ظهر، يظهر عبد الرسول حيرجّع أم حسين، ويمكن يطلّق المرة

الجديدة! زواجه الجديد دا كان فلس ساكت!.

قال سليمان التاجر: فعلا! وَكِت قاعد يدلّك للولد أنا لقيتهم يتونّسوا، وقفت مسافة أسمع كلامهم، حسين يقول لي أبوه: (مرَتك الجديدة دي مرَة فَقُر، مرّة أنا صغيّر مشيت عليهم في البيت، إنت رسّلتني أجيب منهم ميزان الشمار، أبوها كان فقير يكتب البخرات، لقيتُه قاعد وسط النسوان، واليوم داك عيادته المحولة عمرانة، فيها نسوان مغتربات، كورَك فوقي من بعيد وقال لي: داير شنو يا ابن الكلب! مرَتك دي أكبر مني في العمر شوية، جات من جوّة البيت طردتني برّة وقفلت الباب في وشي. من اليوم داك كرهتها وكرهت أبوها، وكمان وَكِت طلّقتَ أمي وجيت عرّستها كرهتها زيادة. همّع سيبك من قصة أنا بحبكم وإنتوا أولادي الكبار وأمّك دي أنا بتفاءل بيها! في زول يتفاءل بي زول يمشي يطلقو؟ لو داير ليك قريشات، تطلّق المرة دي وترجّع أمي بعدين نتفاهم).

أبوه ضحك، ظاهر ضحك خوف! يمسّح في ضهر الولد، بحنان شديد، حنان بتاع زول مفلّس، ويقول ليه: (أمّك بنرجّعها، لكن والله بت شيخ النذير دي طيبة ومسكينة، إنت بس ما تعرفها، بعدين بت يتيمة، حرام أنا لو طلّقتها أخو يراعيها ما عندها. وَكِت طرَدَتك من البيت، أبوها رسلها، أبوها فعلا كان راجل فَقُر، والله أنا فرحت وَكِت مات!).

وحسين يقول ليه: (دي مرة قاهرة، بتقدر تدبّر حياتها، ندّيها الورقة ومعاها عس لبن. وكيف ما عندها أخو؟ النسوان زمان

كان بيقولوا نمشي للنذير يدّينا الجنا، طيب ليه ما جاب الولد!؟ ولا باب النجّار مخلّع!).

شيخ النذير دا استغفر الله من ذنبه قالوا بتاع سُفلي. عز الدين ود حسن نوري قبل يمشي الخرطوم زمان مشى ليه وقال ليه: (عندي عوارض، محل ما اشتغل تحصل مصيبة)، قال ليه: الجماعة ممكن يفكّوا العارض ويشوفوا ليك شغل!).

ضحك سليمان الأعرج وقال: شغل شنو دة جنّ سفلي ولا مكتب عمل!

بعدين بعد يشتغل قالوا ليه الجن بيجوك في اليوم تلاتة مرات!.

قال سليمان مدّعيا عدم الفهم: يجوه ليه؟

قال سليمان التاجر: حيجوه يعني لقولة خير؟ حيجوه ينوموا معاه عشان يخلصوا حقهم!.

أها وعز الدين قال شنو؟

قال ليهم تلاتة مرات في اليوم كتير! حنشتغل متين يعني لو الجن حينط علينا كل شوية!.

ضحك الأعرج وقال:

يا سليمان السنة الفاتت حسين قالوا طلب بتّك الصغيرة أبيت تدّيه، هسع كيف؟

ضحك التاجر وقال: والله أنا ما أبيته، البت قالت دايرة تقرأ، أصلها بت فَقُر، القَرُوا عملو شنو؟ همّع لو وافقت كان مرقنا لينا

بي كيلو دهب زي البرنامج بتاع التلفزيون!.

قال الطاهر: قبل سنتين جاني قال لي داير أزرع معاك في الحوّاشة. أنا في الحقيقة كنت محتاج لي زول معاي، كنت داير أزرع مساحة أكبر شمار، أنا كنت سامع انه بيشتغل كويس لكن ما بيسمع الكلام ومرات يسافر أثناء الموسم بدون يكلّمك، قلت ليه يا حسين إنت مزارع كويس لكن أنا كمان بحب الانضباط.

قال لي: (انضباط شنو! دي زراعة ولا دفاع شعبي!)، قلت ليه: (دفاع شعبي ما بعرفه، لكن أنا عندي كل شي في مواعيده، نسدّ البوغة بالمواعيد، ننضّف الزراعة ونرويها بالمواعيد)، قال لي: (خلاص أدّيني يومين أفكر في الموضوع لأن قصة انضباط دي بتذكّرني الجيش). قبل سنتين ناس الجيش كان قبضوه في سوق السبت، ودّوه معسكر، الظاهر تعب فيه تلاتة شهور لغاية ما شرد). قلت ليه خير، لكن تاني ما رجع. يعني شرد قبل ما نبدأ معسكر الزراعة! يا ربي يكون ماخِدْ في خاطرو مني لغاية هسّع؟!.

ضحك حاج سعيد وقال: أنا الحمدلله لا جاني لي عرس ولا لي زراعة. لو جاني للزراعة كنت بشغّله، الأولاد كلهم مشوا الدهب، ما تصدّق وَكِت تلقى ليك زول يجي داير يزرع! حتى لو زرع القمح في الصيف! والعيش في الشتاء!

قال الطاهر: لكن أنا نفعته، لو قلت ليه تعال أزرع ما كان مشى الدهب ولقى نصيبه! لو زرع معاي كان مرَق ليه بشوال شمار وشوال قمح وقيراطين ويكة!.

قال صلاح الجاز: الطاهر إنت الظاهر عاوز ليك سلفية ولا حاجة!.

ضحك الطاهر وقال: والله لو لقيت زول يموّل لي الموسم كان وسّعت الزراعة شوية السنة دي، أولاد حسن أخوي قالوا ماشين الدهب وقالوا لي ممكن تزرع أرضنا معاك السنة دي!.

جاء فارس بعد قليل، رحّب به حاج سعيد: مرحبا بمنسّق الشرطة الشعبية السابق!.

قال سليمان الأعرج: بدل السابق أحسن تقول ليه منسّق الشرطة الشعبية المخلوع! لأن الكيزان وكت استغنوا منه ولا حتى قالوا ليه رفدناك. جا تاني يوم لقى زول قاعد في محله! الشرطة الشعبية بقت زي بلدنا الهاملة دي، اليصحى بدري يقلبها!.

قال فارس: الحمدلله لقينا شغل! الدهب بتاع حسين جا في وقته!.

مالك ومال حسين كمان؟

مالي كيف؟ الزول صاحبي من زمان، في المدرسة كان وراي والزمن داك كان ضعيف وقصير عشان كدة الأولاد الكبار بيقلعوا منه الفطور ويدقّوه بلا سبب، أنا كنت شغّال ليه حارس شخصي من الزمن داك، لو كنت بحرسه أيام حقّ الفطور ما عنده، أولى أبقى حارسه الشخصي بعد بقى غني!.

وحتحرسه من منو؟.

الكيزان الحرامية أول ما سمعوا بقصة الدهب، جاه ضابط

أمن قال ليه ناس الجيش بيفتّشوا عليك عشان إنت شردت من الجيش، أنا ممكن أعمل ليك حماية، لكن تدّيني كيلو دهب! بالله شوف الناس الما بتختشي دي! حسين أدّاه مليون جنيه وقال ليه تعال لي بعد فترة!.

ضحك حاج سعيد وقال: حراستك ليهو دي زي حراسة الديب للغنم! زي حراسة الكيزان لبلدنا!.

واصل فارس: أنا قلت ليه: (جرام ما تدّيه! الناس ديل أنا بعرفهم كويس، لو جاك تاني قول ليه قابل فارس، السكرتير بتاعي)!.

إنت سكرتير ولا غفير؟

غفير شنو يا حاج! أصلها وكالة؟ أنا مدير أعمال حسين عبد الرسول!.

يا زول إنت مالك ترقّي نفسك بسرعة كدة من غفير لي سكرتير لي مدير أعمال، بعد شوية حتقول الدهب حقي!.

قال فارس: شيخ علي بتاع اللجنة الشعبية جاهو قال ليه أدفع لينا تبرّع للجنة الشعبية وأنا بعفيك من الضرائب والزكاة وبوقّف ناس الجيش لو جو يفتشو عليك!.

قال سليمان الأعرج: وطبعا التبرّع حيمشي على جيب شيخ علي!.

قال فارس: جيب غريق تقول فيه (كوروكي) أصلا ما بيتملي!.

أنا قلت ليه: (قول ليه خير، لكن ما تدّيه حاجة هسّع، لأن ممكن ينفعك لي قدّام لو عاوز تصديق لأرض ولا حاجة!)، حسين قال عاوز يعمل مصنع تعليب، أنا قلت ليه أحسن تقلب بالقروش دي في السوق!.

قال حاج سعيد: يقلب وين، دا لو طلع شبر من البلد دي، يأكلوه تماسيح الكيزان حي!.

قال الطاهر: أنا رأيي يعمل مشروع قمح كبير، يجيب الرشّاشات!.

قاطعه فارس: رشّاشات شنو؟ دا مشروع ولا جنجويد! ما قادر تقول الرش المحوري؟.

واصل الطاهر: الأرض فوق في الخوَي واسعة وخصبة، بس مشكلتها الموية. لو جاب الشركات الكبيرة البيحفروا الأرض بالمكنات، ممكن يطلعوا موية كتيرة!.

قال فارس: مكنات شنو اليحفروا بيها، مشروع دة ولا النهر الصناعي العظيم!.

قال حاج سعيد: الموية مشكلة، والكهرباء بقت تقطع كتير، ما ممكن يزرعوا بيها وفي نصّ الموسم تقطع. عشان كدا أحسن يشوف ليه حاجة تاني.

قال الأعرج: خليه يعمل مشروع تسمين، يشتري بهايم، وعجول وممكن لي قدّام يعمل مصنع للأجبان!.

طيب ما نفس المشكلة، مع زراعة الأعلاف حتكون التكلفة

عالية. لو بلدنا دي فيها مطر ومراعي كبيرة ممكن.

قال فارس: أنا رأيي، قلت ليه، تخلي الدهب قاعد أو تشتري دولار أو بيوت. لأن بعد شوية الجنيه حقنا دا إلا تشيل منه تلاتة شوالات عشان تشتري ربطة جرجير. بعدين الجماعة ديل ما حيخلّوه إلا يقلعوا القروش دي. نعمل بلاغ نقول اتسرق أو يعمل ليه دقينة وننجر ليه غرّة صلاة ويقول ليهم أنا بقيت معاكم، يدّيهم شوية قروش يقول ليهم دا دعم للجهاد. دا أحسن مشروع الآن. ويترشح مجلس الشعب. حيجوا ناس المؤتمر الوطني يترشّحوا معاه عشان يلقوا ليهم قرشين ويخلعوا. والدقينة ساهلة، أنا قلت ليه حتى الكيزان الأصليين ناس شيخ علي، شايلين الموس في جيبهم. شيخ النور مرة حكى لي قال لي: (مشيت لي شيخ علي في البيت داير لي شهادة سكن للولد. أنا شعرت في حاجة لأن في الأول ما كان داير يقابلني، سامعُه يقول لي الولد: قول ليه مافي. كورَكْت قلت ليه: أمرق يا علي وإلا بجي داخل!). أها جا مارق! لقيت دقنه محلوقة نضيف، قال لي: ما بقدر أطلّع ليك الشهادة إلا الدقن تمرق شوية عشان أقدر امرق من البيت)، قلت ليه: (وطيّب حلقت الدقن ليه؟)، ضحك وقال لي: (المرَة الصغيرة مسكينة غشيمة شوية. سمعَت أخبار انقلاب عسكري في بوركينافاسو في التلفزيون، بدون تسمع الخبر كويس جات جارية وأنا في الحمام خبطت لي الباب، قلت ليها في شنو: قالت لي ألحق في انقلاب! ضربتني لخمة بدون ما أشعر حلقت الدقن، وجيت جاري، كنت مجهّز لي حفرة في الحوش عشان الظروف ما معروفة لو حصل شي ندس فيها شوية دهب النسوان لغاية نعرف الحاصل! أها شغّال

أجهز في الحفرة وألملم في الحاجات جاتني المرَة التانية قالت لي:
الانقلاب في بوركينافاسو!).

العقرب

كنا نجلس ثلاثتنا على الأرض في ركن الزنزانة البعيد، نشعر بالإرهاق بسبب عدم النوم ليلا طوال عدة أيام، كنا نشعر في تلك اللحظة بهدوء غريب، ربما من فرط الإرهاق الذي يخمد فيك حتى الرغبة في التفكير. قمنا بعمل اقتراع سري على حبة سجائر إضافية لمن يستطيع أن يخمّن نوع التعذيب الذي سنتعرض له هذه الليلة. طوال ليالٍ كانوا يُبقوننا مستيقظين حتى الصباح بحيل مختلفة: التعليق في مروحة السقف، أو الرش بالماء البارد أو الصدمات الكهربائية.

بعد قليل اقتحم ضابط الأمن الزنزانة، ومعه جندي، يبدو أن لديه اليوم فكرة جديدة، فقد أمر الجندي قائلا: اجمع أحذيتهم!.

لم تكن هناك أحذية بالمعنى المعروف، كانت كومة من القماش والبلاستيك المهترئ، جمعها الجندي ووضعها في كيس بلاستيك أسود. توقّعت أنهم ربما سيضربوننا على أقدامنا. للوهلة الأولى لم أشعر بالخوف، كنت أشعر أن أطرافي قد فقدت الإحساس من فرط ما تعرّضت إليه من ضرب، بما يكفي لعدم الإحساس بأي

تعذيب جديد.

عندها عرَض الضابط آخر حيل التعذيب، قال يخاطبنا: أنتم الأشرار في هذا الوطن تريدون إغراق وطننا في الفوضى، تتظاهرون ضد السلطة الشرعية وتمزقون صور رأس النظام، يا لكم من تعساء!. لم يكن هناك جديد حتى الآن، نفس الخطبة اليومية تقريبا.

رفع علبة زجاجية أمام المصباح الكهربائي الذي يحمله في يده، فرأينا شيئا صغيرا يتحرك داخل الزجاجة.

أعلن بنبرة انتصار: ستقضي هذه العقرب الليلة معكم في الزنزانة! إنها من النوع الذي يعيش في الجبال، تتغذى على الأعشاب السامة والصخور! لدغتها تساوي لدغة مائة عقرب عادية!.

فتح الضابط غطاء العلبة ثم نثر محتوياتها أرضا، ووجَّه ضوء مصباحه الكهربائي عليها. رأينا العقرب في ضوء المصباح تسرع هاربة باتجاه الجدار، عرفنا أننا خسرنا جميعا رهان حبة السجائر. في كل الأحوال من سيأبه للفوز بسيجارة، إن كان لا أحد منا سيضمن منذ اللحظة أنه سيعيش حتى الصباح!.

لم يكن هناك ضوء كهربائي في الغرفة، حين أطفأ الضابط مصباحه ساد في المكان ظلام رهيب، كان هناك ضوء خفيف يتسلل عبر الباب من الممر. أغلق الضابط باب الزنزانة، فغرقنا في الظلام. بعد قليل بدأنا نتبين خيوط الضوء القليلة التي كانت

تتسرب عبر النافذة الصغيرة في أعلى الجدار من مصباح كهربائي بعيد ربما كان أحد المصابيح المستخدمة في حراسة أسوار السجن. كانت تلك المرة الأولى التي ننتبه فيها لخيوط الضوء تلك، والتي كانت تسقط على الجدار المواجه للنافذة الصغيرة دون أن تضيء شيئا حولها، بل تترك فقط خيطا مائيا رقيقا على الجدار.

في البداية لم يجرؤ أي منا على الحركة من فرط الخوف والذهول، قال أكثرنا خبرة: في المرة التالية يجب أن نتراهن على شيء أكثر قيمة حتى نفكر بعمق، ولا نكتفي بالأشياء التقليدية.

من تحدث كان أكثرنا تماسكا، يبدو أنه اعتاد بسبب تعدد مرات اعتقاله على هذه المفاجآت، في السنوات الأخيرة كان قد قضى في المعتقل وقتا أطول مما قضاه في بيته أو في أي مكان آخر، كان دائما يحكي أنه في إحدى الفترات القليلة التي قضاها خارج السجن، كان ينهي معاملة في إحدى المؤسسات وحين طُلب منه كتابة عنوانه، كتب دون تردد ودون أن يشعر بوجود خطأ ما، عنوان المعتقل!

قال: لدينا دقائق قليلة نفكر فيها كيف يجب أن نحمي أنفسنا قبل وصول العقرب إلى مكاننا. لم تكن معنا أعواد ثقاب، كنا نخفيها في الفناء لنستخدمها في التدخين أثناء الاستراحات التي يُسمح لنا فيها بالخروج إلى الفناء، كنا نتصبّب عرقا. لم أفهم ما الذي قاله زميلنا، بدأت لا إراديا أحاول رفع قدميّ الحافيتين من الأرض، يقولون إن لدغة العقرب في الأطراف هي الأسوأ! كنت مشتّتا بين ضربة الموت القادمة وبين صور أسرتي التي بدأت تقف

أمامي، كأنهم جاءوا لإلقاء نظرة وداع أخيرة. ابنتي الكبرى كانت تقف في المقدمة والحزن يخيم عليها، ستكون قد استعدت للذهاب للمرة الأولى إلى المدرسة. لم أكن متأكّدا من اليوم الذي سيبدأ فيه عامها الدراسي الأول، لكنني حاولت حساب ذلك فوصلت إلى أن يوم غدٍ ربما سيكون يومها الأول في المدرسة، الآن لم أعد متأكّدا إن كنت سأكون حيّا حين تذهب ابنتي للمرة الأولى إلى المدرسة.

قال زميلنا الذي حافظ على بعض تماسكه: هناك حبل تعذيب مربوط إلى مروحة السقف، سنعذّب أنفسنا بأنفسنا هذه الليلة، سنحاول تقدير الوقت، يمسك كل منا بالحبل لمدة دقائق ثم يخلي الفرصة للآخر، وهكذا حتى الصباح، بدلا من أن نقضي الليلة كلها في رعب وخوف ستخفف الدقائق التي يتعلق فيها أحدنا إلى مروحة السقف من رعبه وخوفه، ستكون هذه الاستراحة من انتظار الموت مفيدة، وتعطي كل واحد فينا بعض القوة لنصمد حتى الصباح! ثم تنهد وقال: من المؤسف أنه لا توجد سوى مروحة سقف واحدة، وإلا لكان هناك أكثر من حبل للتعلق فيه! شعرنا بالأسف لعدم وجود معدات تعذيب كافية. قال زميلنا المتماسك مازحا: حين يزورنا مقرر حقوق الإنسان إن عرف مكاننا، سنطالب بالعدل، بتوفير أدوات كافية للتعذيب، حبل ومروحة لكل مسجون!

قال زميلنا: يمسك أحدنا بالحبل ويبدأ البقية في العد حتى الوصول إلى الرقم خمسمائة، وعندها يتسلق من عليه الدور الحبل وهكذا. عملية العد نفسها ستساعد في شغلنا قليلا عن التفكير في

العقرب. صمت قليلا ثم قال كمن يفكر في الظلام بصوت عالٍ: ربما وجدت العقرب طريقها إلى الخارج، لكن ذلك سيعني أن نظل طوال فترة إقامتنا هنا في ترقب ظهورها في أية لحظة!.

لم يكن هناك وقت لنضيعه في التفكير بصوت عالٍ، تحركنا فورا نتحسّس طريقنا في الظلام حتى عثرنا على الحبل.

من حسن الحظ، وقعت القرعة التي أجريناها بسرعة عليّ، لأكون أول من يجرّب التعذيب الإنقاذي من العقرب. في المرة الأولى حين قاموا في حفل استقبالنا بتعليقي إلى مروحة السقف، كنت متأكدا في الدقائق الأولى أنني سأموت قبل أن تلامس قدماي الأرض مرة أخرى، وبدت لي مروحة السقف مثل مشنقة. أما الآن فقد شعرت أنّ هذه المشنقة هي واحة الأمان الوحيدة في العالم، هي التي ستوفر لي دقائق ثمينة للحياة. لم أشعر بآلام اليدين وأجزاء الجسم الأخرى بسبب تعلقي في السقف، كان كل همي أن أستغلّ دقائق الحياة الثمينة في استعادة حياتي بوضوح أكثر ربما للمرة الأخيرة.

ما إن شعرت ببعض الأمان حتى قفزت صورة سلافة إلى واجهة ذاكرتي. صبيحة يوم اعتقالي، ذهبت معها إلى السوق، واشترينا بعض الأشياء التي ستحتاج إليها في المدرسة، كانت قد تبقت بضعة أشهر على بداية العام الدراسي، لكنها كانت متعجلة للذهاب إلى المدرسة. اشترينا حقيبة بلاستيكية حمراء صغيرة رُسمت عليها بعض الشخصيات الكارتونية، لتضع فيها بعض الأشياء التي ستحملها معها إلى المدرسة، قارورة من البلاستيك

الملون للماء وعلبة بلاستيك صغيرة لتضع فيها وجبة إفطارها. كانت سلافة تبكي حين أخذني الجنود من البيت، لم تفهم لِمَ يجب عليّ أن أذهب معهم، وكانت تبكي لأنها كانت ترغب في الخروج معي وأمسكت أمها بها لتمنعها من ذلك. أبلغني الضابط أنني سأغيب فقط لنصف ساعة أجيب فيها عن بعض الأسئلة التي تتعلق ببعض نشاطاتي.

مضت ثلاثة أشهر وما زلت في المعتقل، لم يتم حتى اللحظة استجوابي، كنت أتعرّض فقط يوميا مع زملائي للتعذيب. بعد مرور أكثر من شهرين، حُوّلنا من المعتقل السري الذي بقينا فيه إلى هذا السجن، شعرنا ببعض الأمل بأن خروجنا من ذلك المعتقل السري قد يكون إشارة لقرب الإفراج عنا، لكنَّ شيئا لم يتغير. كنا نتعرّض لنفس التعذيب يوميّا، ولنفس محاولات جعلنا نعترف بجرائم لم نرتكبها للاستيلاء على السلطة.

مرّت الدقائق الثمينة مثل لمحة بصر، حين أعلن زميلاي وصولهما إلى الرقم خمسمائة. نزلت من الحبل وشاركت مع زميلي الآخر في رفع زميلنا وربطه إلى مروحة السقف.

كان العرق يتصبب غزيرا من جسمي، حتى شعرت أن الأرض تغرق أسفل قدميّ، كنت أرفع قدمي الحافية وأضرب بها الأرض أملا في قتل العقرب إن اقتربت مني، لكن زميلي نبهني أنّ هذه الطريقة قد تجذب العقرب إلى مكاني، لأن العقرب ربما ستفضّل أن تتحرك قريبا من الجدار، توقفت على الفور، لكنني واصلت رفع قدمي الواحدة تلو الأخرى في الهواء، نظرت باتجاه

النافذة التي يتسرب منها ضوء ضئيل فوجدتها عالية جدا، كما أنها مغلقة بقضبان حديدية بحيث يستحيل التعلق فيها كما خطر لي في البداية. مرت دقائق رهيبة وحان دور زميلنا الثالث، رفعناه، كان يشكو من آلام في قدميه بسبب التعذيب، فلم يستطع التعلّق جيّدا في الحبل وسقط على الأرض، رفعناه مرة أخرى، رغم أنه كان يحاول إقناعنا بأن نتعلق نحن إلى الحبل ونتركه، لكننا أقنعناه أن يبقى ممسكا بالحبل، وسنساعده نحن برفع جسده بأيدينا حتى نخفف الضغط على يديه، لم يكن يرغب في إرهاقنا، لكننا أصررنا عليه ليبقى في مكانه. كان العرق يتصبب مني بشدة، وارتفع صوت دقات قلبي، خاصة أننا مع بقائنا ونحن نرفع جسد زميلنا الثالث لم يكن متاحا لي رفع أقدامي من الأرض. كنت أحدّق في الظلام حولي محاولا تبيّن وجود شيء يتحرك. أحيانا، كان يخيّل لي أنني أرى شيئا يشبه ذيل العقرب المرفوع يتحرك باتجاهي، كنت أحبس أنفاسي منتظرا الضربة القاتلة في كل لحظة.

جاء دوري مرة أخرى للصعود إلى الحبل. ما إن ارتفعت قدماي في الهواء، حتى عدت أفكر في ابنتي وزوجتي. تركت لزوجتي في البيت مالا قليلا، ولا أعرف كيف ستستطيع تدبير أحوالها إن طال غيابي، ربما يجب أن تذهب للعيش مع والدها. بيت والدها بعيد، وستكون هناك مشكلة في وصول ابنتي إلى مدرستها، فكرت: ربما يمكنهم نقلها إلى مدرسة أخرى مؤقّتا. مدرسة تكون قريبة من بيت جدها. بسبب عملي في مؤسسة حكومية، ربما يطردونني من العمل بسب الغياب. ستكون زوجتي أبلغتهم أنني معتقل في قضايا سياسية. وسيكون ذلك مبرّرا إضافيّا لطردي من العمل. وبالطبع

حين لا ندفع إيجار البيت لأشهر سيطردنا المالك. وسيكون عليّ حين أخرج من هنا، أن أبدأ استعادة حياتي من الصفر، لن يكون سهلا العثور على عمل، لا توجد فرص كثيرة. ومعظم الشركات الخاصة يملكها أشخاص يتبعون للحكومة، لن يسرّهم استخدام شخص تتهمه حكومتهم بالتواطؤ ضدها.

لم أجد حلا لأي من مشكلاتي. حين انتهت فترتي وحان دور زميلي الآخر، كنت أتوقع وأنا أهبط إلى الأسفل أنني ما إن تلامس قدماي الأرض، حتى أجد العقرب بذيلها المشرع في الهواء في انتظاري. لكن لحسن الحظ وصلت قدماي إلى الأرض بسلام. بدأت فورا في تحريكهما بسرعة إلى الأعلى أملا أن تمر العقرب من أسفل جسدي دون أن تمسني. كنت أبطئ أحيانا حين أرفع إحدى قدميّ في الهواء، لو لم تكن العقرب متعجّلة لا شك أنني حين أرفع قدمي وأنزلها، سوف أنزلها فوق ذنبها، لكن العقرب ستكون متعجّلة بحيث أنها ستعبر كالسهم من بين قدميّ، هي نفسها ستشتمّ رائحة خطر في المكان، وستكون متعجّلة وهي تبحث عن مكان آمن لها! هل تعرف العقرب أنها أيضا في السجن؟! لو كانت تعلم أنني أضعف منها كثيرا، ربما لبقيت بعيدا عنا، هي تستطيع أن تحفر أسفل الجدار، وتجد طريقا إلى الحرية، بينما أظل أنا في رحمة من لا يعرف الرحمة، فكرت قليلا: هل حين تحفر العقرب أسفل الجدار وتجد نفسها في الخارج، هل ستشعر بالفرق؟ أخشى أنها بعد ضياع جهد عدة ليالٍ في الحفر ستجد نفسها في فناء السجن! أو ستكتشف أن خارج السجن نفسه ليس سوى سجن كبير! لكن العقرب لن تهتم، ستبحث عن أجمة حشائش أو فرع شجرة جاف

أو شقوق جدار وتختبئ فيها وتخرج ليلا لتدبير عيشها! انتبهت لفكرتي الأخيرة! أن العقرب تخرج ليلا لتدبير عيشها، وبدأت أرفع قدمي بطريقة هستيرية ودون قصد تخطّيت الرقم الذي توقفت عنده أثناء حسابي لفترة زميلي في الحبل بأكثر من مائة! لكن زميلي الآخر كان لا يزال يحتفظ بالرقم الصحيح.

حين جاء دوري للمرة السابعة أو العاشرة كنت منهكا تماما، ربما بسبب الخوف وقلق انتظار العقرب، أكثر من أي مجهود بذلته في رفع زميليّ إلى الحبل أو التعلق بالحبل، لكنني رغم التعب الشديد استطعت الصعود والبقاء في الأعلى دون مساعدة. كنت أشعر أنني أنزف داخل جسدي بنفس نزف العرق الذي غطى جسمي، وأن مقدرتي حتى على التفكير قد تعطلت. لبثت في مكاني مثل حجر، لا أرى ولا أسمع شيئا ولا حتى صوت زميليّ. في النهاية حين شعرت أن الوقت طال وأنني أخذت أكثر من حصتي كثيرا، ناديت على زملائي فلم أسمع شيئا، تركت جسدي ينزلق إلى الأرض، فوجدت نفسي فوق جسدي زميلي، كانا مستغرقين تماما في النوم، نسيا من فرط التعب العقرب وسمّها، وأسلما جسديهما المكدودين إلى النوم، كانت خيوط قليلة من ضوء الفجر قد تسربت إلى الغرفة، لكن الرؤية كانت لا تزال غير واضحة. تكومت بجانب زميليّ وأسلمت جسدي إلى النوم.

جدّي والشاي ورئيس اللجنة الشعبية

قلت لجدي المشغول بشراب الشاي: سيحضر رئيس اللجنة الشعبية اليوم!.

جفل جدي ووضع كوب الشاي أرضا، وقال: ماذا يريد هذا التافه؟.

قلت: يقول إنه يريد احصاء الأسرة بنفسه. يقول إننا نحصل على حصة سُكّر أكبر من عددنا الحقيقي!.

والحقيقة أنّ جدي هو الذي سجّل كل أفراد الأسرة، حتى الموجودين خارج الوطن، أضاف حتى بعض الموتى، مفسرا ذلك بقوله: مَن العبقري الذي يستطيع أن يجد فرقا واحدا بيننا وبين الموتى!؟.

وكل ذلك بسبب عشقه للشاي، حيث تظل ناره مشتعلة طوال اليوم، وكانت حصة السكر التي تخص الموتى والأحياء تذهب معظمها إلى جوفه، دون أن ترضي شيئا من نهمه المستمر إلى الشاي.

قال جدي: هل فرغ هؤلاء الأوغاد من حلّ كل مشاكل الدنيا

ولم يتبق سوى مشكلة رطل السكر الذي نكرم به ضيوفنا؟ قاموا بسرقة الديزل المخصص للموسم الزراعي وباعوه في السوق الأسود، لا يوجد دواء في المستشفى، والطبيب الوحيد هاجر من الوطن، المدرسة الابتدائية آيلة إلى السقوط فوق رؤوس التلاميذ ولا توجد مقاعد ليجلسوا عليها أو كتب أو أقلام. ولا عمل لرئيس اللجنة سوى إحصاء الناس لتوزيع السكر بالعدل وهو لا يرمي سوى لسرقة السكّر المتبقي لبيعه في السوق السوداء!.

شرب جدي بقية كوب الشاي وقال لي: متى سيحضر هذا الغبي؟.

قلت: قال إنه سيحضر بعد صلاة الظهر.

وضع جدي خطته، سنختبئ نحن، وسوف تبقى النساء فقط في البيت وسنترك باب البيت مفتوحا.

جاء رئيس اللجنة الشعبية، وجد باب البيت مفتوحا، طرق الباب ولم يرد عليه أحد، تردد قليلا ونحن نراقبه من فوق السقف نحبس أنفاسنا حتى لا ننفجر في الضحك، ولأنه مسئول كبير، بحكم الدستور، فقد تقدّم إلى داخل البيت مثل عادة أهل الريف، وهو يصفّق بيديه. أذكر قصة رجل في القرية كان يحب مصافحة النساء، وكلما دخل إلى بيتٍ ما كان يتجاهل مكان الرجال وينطلق إلى داخل البيت رافعا صوته مثل مذيع نشرة الأخبار: كيف حالكم يا أهل الدار!.

تقدم رئيس اللجنة الشعبية إلى داخل البيت، حتى وصل إلى

صالة البيت الرئيسية وقام بتحية النسوة المشغولات بتنظيف القمح لإرساله إلى المطحن.

في تلك اللحظة بالتحديد ظهر جدي فجأة وكأنه قادم من الخارج.

صرخ بصوت عال في الرجل الذي كان يحاول تحيته: ماذا تفعل هنا يا رجل وسط النساء؟.

تلفّت الرجل حواليه محرجا، وقبل أن يحاول استدراك الموقف قال جدي: كيف تدخل إلى البيوت بدون إذن أهلها؟.

ظهرنا نحن في تلك اللحظة حسب الخطة وصرخ جدي فينا: أين كنتم يا أولاد ليدخل هذا الرجل إلى البيت ويجلس وسط النساء.

ناداني جدي: اذهب يا ولد واستدعي أحد رجال الشرطة!.

ظهر أشقائي الكبار وهم يحملون العصي، وقال جدي بعد أن شعر بمأزق رئيس اللجنة الشعبية الذي أجمته المفاجأة فلم يستطع النطق: ألا يوجد قانون في هذه البلد؟ كيف تدخل البيوت بدون إذن اهلها؟.

كنت أنا قد خرجت لاستدعاء البوليس وتسكّعت في الفناء حسب الخطة، بدأ الرجل يعتذر: والله لم أكن أعلم أنه لا يوجد رجال في البيت!.

ارتاح جدي قليلا للانكسار الواضح في صوت الرجل وقال:

بالنسبة لي لا مشكلة لقد قبلت الاعتذار، لكن الأولاد لن يقبلوا ذلك.

تطاير الشرر من عيون إخوتي الكبار لدي سماعهم عبارة جدي، وقال أحدهما وهو يتقدّم رافعا الجزء الحديدي من العصا: يجب أن نقتله!.

امسك به جدي وصرخ فيه: انتظر، ذهب الولد لإحضار البوليس!.

في تلك اللحظة التي وصل فيها الرعب إلى مداه، وصل عمي حسب الخطة وقال بصوت عال: أهدأوا يا إخوتي ما الذي يحدث هنا؟.

قال جدي: هذا الرجل دخل البيت بدون إذن ووجدناه جالسا وسط النساء!.

زجر عمي رئيس اللجنة الشعبية على تصرّفه، وانتهر الأولاد في الوقت نفسه ليضعوا العصي جانبا ويتركوه لحل المشكلة.

قال جدي: أرسلنا الولد ليحضر البوليس، بيوت الناس ليست فوضى يدخلها كل من هب ودب!.

أمر عمي أحد إخوتي ليجري لإعادتي قبل أن أصل إلى البوليس، وصاح في النساء طالبا إعداد الشاي، معلنا: يا إخوتي هذا الرجل جارنا وإن أخطأ فالمسامح كريم!.

شعر الرجل ببعض الراحة وترقرقت دمعة في عينيه، طلب منه عمي الجلوس وذهب ليحضر الشاي، شرب الرجل الشاي وهو

يكرر الاعتذار بأنه لم يكن يعلم بأن البيت ليس به رجال.

سأله عمي بلطف عن الغرض من الزيارة.

قال بعد تردد إنه في الحقيقة جاء لإحصاء سكان البيت بعد أن وصلت شكاوي إلى اللجنة بأن الأسرة تحصل على كمية من السكر أكبر من الحصة القانونية.

وقال عمي: أنت بنفسك تعرف استهلاك السكر مع عدد الأطفال الكبير والضيوف، إنها وقية واحدة لكل فرد هي كل ما نحصل عليه من طاقة نستهلكها في عراك ركوب المواصلات العامة والشجار، الناس بسبب الفقر يشعرون بالتوتر لذلك يتشاجر الجميع مع الجميع طوال اليوم!.

قال رئيس اللجنة الشعبية: والله معكم حق.

وقال الجد: بالعكس نحن عددنا زاد، عدد من أقربائنا جاءوا من القرية للدراسة أو العلاج ويعيشون معنا. لا توجد فرص علاج أو تعليم في الريف!.

قال رئيس اللجنة الشعبية: كلامك صحيح يا حاج.

أخرج رئيس اللجنة الشعبية بطاقة تموين جديدة من جيبه وقال: العدد المسجل هنا عشرين شخصاً كم العدد الآن؟ قال جدي على الفور: أربعين.

رشف رئيس اللجنة الشعبية رشفة طويلة مصحوبة بخط موسيقي قبل أن يكتب: خمسة وأربعين!.

الرحلة الطويلة نحو الشمس
أو أحلام الملكة النائمة

كانت الفتاة الجميلة تتنقّل داخل البص بجسد خفيف مثل فراشة، لم تكن تمشي على قدمين مثل البشر، بل تتخلّل الأشياء أثناء عبورها مثل سحابة، مثل غمامة عطر، وكانت رائحة جسدها خليطاً من عبق الزهور ورائحة الأرض: رائحة الحياة. كنا نجلس داخل البص كأننا في رحلة إلى عوالم أخرى، إلى الفضاء. وكأننا منوّمون مغناطيسيا، لا نعرف لم يجب أن نستيقظ أو نخلد للنوم. لم تشغلنا الساعة، ولم يسأل أيّ من الركاب أين نحن ومتى نصل وجهتنا. كأننا وصلنا وجهتنا منذ زمان بعيد فلم يعد ذلك يشغلنا، لم نكن نملك زمننا أو قرارنا أو حتى وجوهنا التي كانت تتحرك آليا في الفراغ، تصطدم ببعضها، مثل طائرات ورقية، كأن قوة مجهولة كانت تتحكم في حركتها وسكونها.

حين توقف البص في سوق ليبيا محطته الأخيرة قبل أن ينطلق إلى الصحراء. أبدى أحدهم الرغبة في الذهاب إلى السوق لشراء علبة سجائر، أعطاه الشاب الذي يجلس بجانبي ثلاثة جنيهات

طالبا منه إحضار (صباع أمير) معه. قبل نزوله من البص، تلكّأ الرجل ونظر باستعطاف باتجاه الفتاة الجميلة أملا أن تطلب منه شيئا ما، ترسله إلى أي مكان، كان مستعدا للذهاب إلى الجحيم إن كان المقابل بسمة ساحرة أو كلمة شكر. لم تخيّب الجميلة ظنه، طلبت منه بصوت ملائكي أن يُحضر لها نصف رطل من حلوى الطحنية! قبل أن تمدّ يدها إلى جيبها لتسحب محفظتها الصغيرة لتدفع قيمة الطحنية. ودون تردّد، خرجت في نفس اللحظة وبنفس السرعة خمسون محفظة بعدد ركاب البص عارضين دفع قيمة الطحنية! حتى الطفل الجالس أمامي أخرج كيسا من قماش الدمّور به عملات معدنية أصبحت خارج الاستخدام بفضل التضخم، والتغيير المتكرر للعملة الوطنية، ولا تكفي لشراء أية شي، عارضا الدفع! سحبت أنا أيضا محفظتي وإن كنت بقيت لبرهة مندهشا لفكرة أن يحتاج كل هذا الجمال لأكل الطحنية! لكن الرجل الذاهب إلى السوق لم يجد مكافأة له أفضل من الطلب نفسه، رفض أخذ نقود من الجميلة مؤكدا إنه يملك مالا كثيرا. في ما بعد اكتشفت أنه لم يكن يملك مالا كثيرا أو قليلا، وأنه اشترى حلوى الطحنية بثمن (صباع أمير) الذي حصل عليه من الرجل الآخر! لا بد أنه فكر قائلا لنفسه: يستطيع الرجال الانتظار! لكن كيف نجعل الملاك ينتظر؟! وما جدوى (صباع أمير) أصلا؟ لتبقَ الأكواب المكسورة والأطباق كما هي في مكانها، في كل الأحوال بسبب التقشّف الذي أعلنته الحكومة لا يوجد كثير من الطعام يحتاج إلى استخدام حتى الأطباق المكسورة. واختفت لحسن الحظ مادة السكّر من البيوت والأسواق بسبب الغلاء. عرفت بذلك

حين وجدت الشاب الجالس بجانبي يتشاجر مع الرجل الذي أحضر الطحنية، هامسا له بأنه سيخبر الجميلة بأنّ الطحنية تم شراؤها بنقوده إن لم يُعِد إليه النقود فورا! بالفعل سمعت الرجل يقول وكأنه قرأ أفكاري: يمكنك الانتظار، أنت معتاد عليه منذ أن وَلدت، كأنك خرجت إلى الدنيا فقط لتتنقل من (صف) إلى آخر! تقف أحيانا فى صف لتشتري خبزا ويمضي الزمن وأنت واقف (يتغير حتى العالم من حولك) وتدقّ مارشات انقلابات عسكرية وانقلابات مضادة، وأنت واقف كأن مصير العالم كله متوقف على انتظارك لقطعة خبز لا تجيء وإن جاءت لا تسد رمقا. أنت متمرس على الانتظار دون هدف، لكن كيف نجعل الملاك ينتظر؟ هل رأيت من قبل ملاكا يقف في صفوف الخبز أو الدواء؟!.

كان ردّه مقنعا حتى إن الشابّ الجالس إلى جواري كفّ عن التذمر وتذكيره كل بضع دقائق بأنه مدين له بثمن الطحنية، وأنه هو من يجب أن تشكره الجميلة لأنه دفع ثمن الطحنية. لم نشعر بحرارة الجو، رغم أن الصحراء خارج البص كانت على وشك الاشتعال، مضى النهار الطويل بسرعة كأنه يسابق البص نفسه، حتى انتبهنا إلى الشمس التي كانت تغرق في الصحراء. بدت لنا كأنها ترفع يدها مستنجدة بنا أن ننقذها قبل أن تغرق في جحيم الظلام. كان صعبا علينا فهم مرور الزمن، فقد بدت لنا الشمس الغاربة جزءا من الجمال الأبدي الذي يُغرق الكون كله. تعالى صوت عزف على آلة الطنبور، مضى بعض الوقت قبل أن نتبيّن خيوطه من بين هدير الجمال من حولنا. كان الرجل الذي أحضر الطحنية هو أوّل من تنبّه إلى الفتى الجالس في مقدمة البص يعزف

لحنا حزينا مثل تلك الشمس الغاربة، بدا لنا اللحن نفسه وكأنه يستنجد بشيء مجهول حتى لا يضيع وسط أمواج السحر الذي يغرق المكان.

ثم بدأ الفتى يغني، كان يغني مقطعا وتغني الفتاة الجميلة مقطعا آخر، غرقنا تماما في سحر الغناء الذي شعرنا كأننا نطفو فوق أمواجه. رأيت القمر يقترب من النافذة، جذبه صوت الغناء الجميل. تمنيت في تلك اللحظة أن يتعطل البص أو يحدث زلزال قوته عشر درجات على مقياس هذا الحلم الجميل لنبقى نطفو فيه إلى الأبد. حين أخلدت الجميلة إلى النوم، انقطعت فجأة نغمات الطنبور، نام العالم كله، بدت حتى الصحراء نفسها كأنها وجدت في تلك اللحظة كغطاء سحرى لنوم الجميلة. لم يكن يصدر عنها أي صوت أثناء نومها، كأنّ العالم نفسه توقف عن التنفس، كنت الوحيد الذي بقي مستيقظا فيما صوت البص يزأر في سكون الصحراء مثل أسد هزمه الجوع. كان القمر الحزين لا يزال واقفا في النافذة، ومن خلفه صف طويل من الكواكب في انتظار خبز الوجه النائم الساحر.

وحتى لا أشعر بالسأم، لأنني لا أخلد أبدا للنوم أثناء السفر حتى وإن كنت أسافر في قارب يهدهده الموج وضوء القمر، فكرت في ممارسة هوايتي في قراءة أحلام من يخلدون للنوم حولي. لم أر شيئا في البداية حتى حسبت أن سحر هذه الجميلة عطّل كل مواهبي في اقتحام ذاكرة النائمين، فجأة رأيت الهواء داخل البص مليئا بأنفاس أحلامها. لا بدّ أن للجميلة النائمة سحرا يجعلني لا

أقرأ أحلام النائمين في ذاكرتي مثلما كنت أفعل، بل أشاهد كل شيء معروضا أمامي في الهواء.

رأيت وجوها معلقة في الفضاء مثل النجوم، رأيتها تجلس مثل الملكة الكنداكة فوق عرش من النور، ثم بدأت شلالات الضوء تتدفق من عرشها تعبر مثل سيل من النور فتهرب أمامها جيوش الظلام، فيصبح العالم كله كتلة من الضوء. لا بد أن الجميلة انتقلت فجأة إلى نوم عميق فقد اختفت أحلامها من الهواء، رغم أن بقية خيوط شلالات ضوء عرشها كانت لا تزال تضيء العالم. رأيت أحلام الرجل الذي أحضر حلوى الطحنية للجميلة، دهشت لأن أحلامه يغلب عليها الجشع، كان جالسا بلحية طويلة تلامس الأرض، في متجر ضخم مكدس بالبضائع من كل نوع، كل ما يحلم به كان معروضا للبيع، حسبته من حادثة الطحنية يملك قلبا كبيرا حتى أنه اختلس نقود صديقه بدافع الحب، لكن أحلامه أوضحت أنه يمكن أن يختلس نقودا لدوافع أخرى. رأيت أحلام الفتى الصغير الذي كان يعزف على الطنبور، وجدت فيها بقية الصور التي ضاعت من أحلام الجميلة حين غرقت في لجة النوم العميق. الوجوه المتناثرة مثل نجوم تائهة في الفضاء ومواكب النور، التي تصعد في رحلتها إلى أبد السماء. رأيت أحلام رجل يجلس في مؤخرة البص، عرفت من أحلامه أنه لص فقير لا يجد حتى ما يسدّ رمقه. كان يسرق في حلمه قصرا منيفا لرجل يملك سُلطة ومالا. كان اللص جالسا أرضا يحصي أكداسا من العملات الصعبة التي عثر عليها في القصر. تمنّيت ألا تشرق الشمس أبدا، أن تضيع في الفضاء وتنسى أي عالم سيتعيّن عليها إيقاظه بأشعتها

الحارقة. وأن أظل إلى الأبد جالسا في أطياف أحلام هذه الملكة.

فجأة بهرَني بركان ضوء الفجر المتدفق في المكان. حسبت أن الضوء قادم من الخارج، حيث العالم بدأ يصبح أشبه بالفضة الذائبة، وتراجع إلى الفضاء القمر الواقف في النافذة وصفّ الكواكب من خلفه، قبل أن أكتشف الفجر الصاعد من أحلام الملكة النائمة، مواكب من النور وسيولا من البشر التي تهدر في الشوارع، في الرحلة الطويلة نحو الشمس.

أبـــي

قالت أمّي: لقد أصبحتَ كبيرا ومن حقّك الآن أن تزوره.

قالت ذلك وكأنها تتحدّث عن شخص لا تستطيع وصف صورته، لم أفهم لم جعلتني نبرات صوتها أشعر بأنها كانت تتحدث عن شخص لم يسبق لها أن رأته مطلقا.

حين تراه، قالت: صافِحْه بأدب.

علّمَتني كيف يجب أن أصافحه بأدب، يجب أن ينحني جسمي إلى الأمام قليلا وتقترب شفتي من يده: إن سألك عني، قالت، قل له نحن بخير وأننا لا نحتاج إلى أي شيء.

ارتديت في الصباح جلبابا أصفر اللون خاطته أمي بنفسها، وضعَت لي حول عنقي شالا من قماش قطني بارد الملمس.

كان الوقت شتاء، والرياح الباردة تصفّر في أزقة القرية.

سوف تمرض، قالت لي وهي تصلح من وضع الشال حول رقبتي: يجب أن تحافظ عليه دائما حول عنقك حتى لا تمرض.

ثم وضعَت على رأسي طاقية بيضاء من الصوف وأعطتني

نقودا تكفيني لإيجار الحافلة التي سأستقلّها.

حين أصبحت جاهزا للخروج، أوقفتني وأحضرت مبخرا به قطع جمر حمراء ألقت فيها حبات من البخور والكمّون الأسود ثم جعلتني أستنشق الدخان، فيما تضع هي يدها على رأسي وتقرأ بعض آيات القرآن ثم دارت بالمبخر ثلاث دورات حول رأسي. كنت أحب رائحة احتراق حبات الكمّون الأسود وهي تتقافز فوق النار المشتعلة وكأنها تحاول الهروب من مصير محتوم.

حين ودّعتني أمام باب البيت كرّرت لي قولها:

قل له نحن بخير ولا ينقصنا شيء، ثم ترددت قليلا وقالت: إن سألك كيف نعيش لا تقل له شيئا عن حياكة الطواقي والملابس أو عن عملك في الصيف في المزارع، قل له إن خالك يرسل لنا مالا نعيش منه.

في الشارع وقفتُ قليلا في انتظار الحافلة، كان العالم قد بدأ يسترد حياته وروائح الحياة تعبق من داخل البيوت، رائحة دخان نار جريد النخيل التي تعد النسوة طعام الإفطار عليها ورائحة الخبز الساخن.

تذكّرت مدرَستي التي ستفتح أبوابها بعد أيام، والمشوار الطويل الذي أقطعه إليها ذهابا وإيابا كل يوم، وفكرت:

هل سيهديني أبي حمارا؟

توقّف السائق متردّدا حين رفعت يدي وسألني قبل أن يتوقّف

تماما:

هل معك نقود يا فتى؟

رفعت يدي بالورقة النقدية التي كنت لا أزال أقبض عليها بأصابعي، فتبسم السائق وأوقف السيارة وسط عاصفة صغيرة من الصفير والغبار.

جلست في الخلف. كان للحافلة مقعدان طويلان متقابلان يجلس على كل مقعد خمسة ركّاب، لم أتبين ملامح الركّاب الآخرين جيدا بسبب البرد، كان الجميع يُغَطون وجوههم.

سمعت فقط أحدهم يتحدث مع جاره، كان يبدو وكأنه يتحدث إلى نفسه بصوت عال:

لقد قرّرت ألا أغامر بالزراعة هذا العام، في العام الماضي خسرت كل شيء، ولولا أني بعتُ قطعة أرض ورثتها عن والدي لأسدّد ديون البنك لقضيت بقية عمري في السجن.

ردّ عليه صوت مبحوح:

وماذا نفعل؟ نجلس في البيوت؟ أفضّل السجن على أن أجلس في انتظار مساعدة من شخص ما.

علّق الرجل الأول:

في هذا الزمان لا يصلح أن تكون شجاعا، يجب أن تكون حذرا وإلا واجهت المتاعب!.

استغرقتني أحلامي فتباعدت أصوات الرجلين ولم أعد أسمع

أو أرى شيئا سوى تفاصيل صورة استقبال أبي لي والحمار الذي سأعود به.

لابد أن والدي سيكون كريما معي. لم يرَني منذ خمس سنوات. لديه أطفال من زوجته الأخرى، كما قالت لي أمي. لكنني ابنه الأكبر، سمعت في القرية كثيرا أن الابن الأكبر يكون له وضع خاص، ألم يطلق عليّ اسم والده؟ لا بدّ أنه يحبّني مثلما كان يحب والده وإلا لما أطلق على اسمه.

كنت أفكر كيف سأعود ومعي الحمار. لن أتمكّن بالطبع من العودة بالحافلة. سيكون الطريق طويلا بالحمار لكنه سيكون ممتعا جدا. الحافلة تعبر بسرعة. لا تستطيع رؤية العالم من حولك بصورة أفضل مثلما يحدث من على ظهر الحمار. السيارة تعبر بسرعة فتختلط مشاهد الأشياء، وحتى حين تبطئ سيرها تغطي كل شيء حولها بالغبار. كأن الغرض من السرعة في التنقل بالسيارة هو أن تدفن كل العالم حولك وتدفن نفسك أكثر داخل نفسك وخطط حياتك.

شعرت بفرح إضافي، سأتمكن من توفير مبلغ صغير. المال الذي يجب أن أدفعه لقاء أجر العودة بالحافلة. سأعيده إلى أمي لكنها لن تأخذه على الأرجح، سأشتري شيئا يوم السوق القادم حين أذهب لشراء مستلزمات البيت. فكرت ماذا أشتري. قلم جديد، حذاء خفيف أستخدمه في الصيف حين أذهب للعمل في المزارع، لأن حذائي القديم أصبح باليا. لكن أمي قد لا تسمح لي بارتدائه. في الصيف تكثر العقارب لذلك تصرّ أمي أن أرتدي الحذاء المحلي

المصنوع من جلد الأبقار. إنه يحمي القدم من العقارب ومن الشوك الذي ينتشر في كل مكان.

قال صاحب الصوت المبحوح: أفكّر في العودة للعمل في مصلحة البريد، لقد باعتها الحكومة لبعض الأشخاص وشرعوا في استثمارها بصورة حديثة.

قال المزارع الذي أعلن إضرابا عن العمل والذي رغم أن وجهه كان مغطى تماما لكنني تخيلته مبتسما بخبث:

لن يعيدوك إلى العمل أبدا. أنت لا تعرف شيئا عن المخترعات الحديثة. من يعمل معهم يجب أن يعرف كيف يتعامل مع جهاز الكمبيوتر وأنت بالكاد تستطيع فتح جهاز الراديو، كما أنهم لا يحتاجون إلى عمال كثيرين. يُقال إن هذا الكمبيوتر ينجز في لحظة واحدة عمل مائة رجل!.

هذه تخاريف، قال صاحب الصوت المبحوح، تخيّلته مبتسما بكآبة. أنا أعرف عملي جيدا وأؤدّيه بصورة مثالية. أختم الرسائل وأوزّعها في الحقائب الصحيحة، وحتى حين لا يكون هناك حبر للأختام المعدنية أصنع حبرا من الصمغ والكربون. لا تستطيع آلة صماء تفقد عقلها حين تنقطع الكهرباء أن تفعل ذلك.

ضحك المزارع الذي أضرَب عن العمل للمرة الأولى بصوت عال. أصابني ارتجاج صوت ضحكته بخيبة أمل، لا أدري لم تخيّلت لضحكه شكلا مختلفا. قال:

انتهى عهد الرسائل التي تختمونها بأختامكم الحمقاء. ألم تسمع

بالبريد الإلكتروني؟ تضغط زرّا على الكمبيوتر فيقرأ الشخص الذي أرسلت إليه الرسالة في الجانب الآخر من العالم رسالتك في نفس اللحظة ويصلك ردّه قبل أن تكمل كوب الشاي الذي تشربه!.

الرجل المصرّ على العمل لم يستسلم بعد: هذه أوهام، كيف يمكنني أن أثق في أن رسالتي تنقلها آلة صماء يمتلئ جوفها بالكهرباء دون أن تحذف منها شيئا أو تنقلها لجهة أخرى بدلا من الجهة التي أقصدها. وما عيب رسالة أحتفظ بها في جيبي وأبرزها عند الحاجة وأحتفظ بها في حقيبتي تذكارا من شخص عزيز، وحين تتغيّر رائحتها بفعل الزمان، أتذكّر حين أشمّها عبق زمن آخر تعيدني الرسالة إليه.

تذكّرت قول أمي: لا تنزعج إن لم يستقبلك بودّ. إنه أب طيب رغم حرصه أحيانا على إظهار عكس ذلك.

ردّدت العبارة في سري حتى اقتنعت بها: إنه أب طيب، إنه أب طيب.

فكرت في حماري الصغير. قد أحمل معي إلى المدرسة أحد أصدقائي ممن يمشون إليها على أقدامهم مثلي. لن أفعل طبعا مثل ذلك الصديق الذي يَحضُر إلى المدرسة على ظهر حمار كسول يسير خطوة إلى الأمام ثم يستريح قليلا قبل أن يستأنف خطوة أخرى. زملائي يقولون إن الحمار ليس كسولا لكن صديقي هو

الكسول. لا يطعم الحمار جيدا. يسير الحمار في البداية بسرعة ثم تنفد قواه تحت ثقل وزن صديقي البدين والذي حين يجد أنه لا بدّ أن يتخلص من بعض الأشياء التي يحملها حتى يخفف الوزن على الحمار يمسك جيدا بإناء طعام الإفطار ويلقي أرضا بحقيبة القماش التي يحمل فيها الكتب المدرسية!.

صديق آخر يفسر الأمر بأن صديقنا الكسول يتعمّد عدم إطعام حماره حتى يصل كل يوم متأخّرا، لأنه بسبب عدم حبه للمدرسة لا يتعجل الوصول إليها!.

لن أفعل مثله، سأعتني بإطعام حماري حين أخرج عصرا لرعي الماعز سأصحب حماري معي للرعي. سأحمل طنبوري معي وأجلس بعيدا أراقب الماعز والحمار وأغني حتى تغرب الشمس. وفي الصيف حين أذهب للعمل في تسميد أشجار الفواكه في المزارع سآخذه معي ليأكل من الحشائش التي نزيلها من تحت أشجار الموالح قبل أن نضع زبل البهائم الذي يُستخدم كسماد محلي.

كان المزارع النشيط لا يزال يحاجج برغبته العودة ليعمل موظفا، صوته يتسرّب إلى أذني مصحوبا بزعيق الريح الراحلة فوق حقول القمح. تختلط مع صوت أمي:

إنه أب طيب، إنه أب طيب.

لا حاجة بنا لرجال الشرطة

يضع أبو الحسن المدرّس المتقاعد ساقا فوق ساق وهو يجلس على صخرة أمام بيته يرقب الناس التي تمرّ من أمامه في عجلة. قبل أيام حصل على معاشه. المعاش قليل ولن يكفي لكي يبقى على قيد الحياة، سيضطرّ للكتابة إلى ابنه الأكبر الذي هاجر منذ سنوات ليساعده ببعض المال. الشيء الوحيد الذي يجعله يشعر ببعض السعادة كان هو تفرّغه لنزاع على قطعة أرض صغيرة مع جار لهم. قبل أشهر قطَع الجار غابة صغيرة في الأرض المتنازع عليها وباعها لمصلحته.

يضحك الأستاذ أبو الحسن قائلا بصوته الجهوري: سأجعل هذا التافه يكره اليوم الذي وُلد فيه!.

يضحك بدون مناسبة أثناء كلامه ويتحدّث مع الناس والجيران وكأنهم تلاميذ: هذا صحيح! أنت تتحدّث بلغة واضحة وصحيحة، لكن ينقصك بعض الثقة بالنفس، يضحك بدون سبب، ويواصل: كان لديّ تلميذ يعاني من نفس مشكلتك، حين يحاول شرح أمر ما يزيد الأمر تعقيدا بسبب لغته السيئة وتهاونه

في استخدام الكلمات المناسبة، يضحك بصوت عالٍ، يا لها من مهزلة! إنه كسول جدا! يستخدم أول كلمة تخطر على باله، حتى وإن لم يكن لها علاقة بما يريد قوله، يضحك مرة أخرى ويسحب نفسا من سيجارته ويقول: في زماننا ما كان يمكن لأحد أن يتساهل في أمر كهذا، الآن تحوّلت المدارس إلى متاجر تبيع للناس أي شيء إلا العلم الصحيح، يضحك، وحين يقول شخص ما الحقيقة، يرسلون إليه خطابا من سطرين، كأنهم لم يتذكّروا أنه بلغ سنّ المعاش إلا حين بدأ لسانه ينطق في الاتجاه المعاكس، يضحك بصوت جهوري، أيّ تلاميذ هؤلاء، طلبت من ولدي الذي يدرس في مدرسة ثانوية أن يكتب لي عريضة قبل أيام لنقدّمها إلى مدير الشرطة، حول الأشجار التي قطعها هذا البائس وباعها، لقد كتب رسالة تصلح لحبيب، يضحك بصوته الأجش، كيف لنا أن نخاطب مدير الشرطة بعبارة تقول: نحن بخير وما بنا غير الشوق لكم، إنها مهزلة! كيف يشتاق أحدهم لرجال الشرطة؟!، لا بدّ أنه يشتاق أيضا لارتكاب جريمة ما! يضحك بصوته الجهوري، ولدي ليس سيئا، لكن نوع التعليم الذي يتلقاه هو المسئول عن ذلك، يضحك بصوت أجش، وحين يقول لهم شخص ما الحقيقة يحيلونه للصالح العام، كأن مشاكل العالم كلها ستحل مجرد أن أجلس أنا أمام بيتي دون عمل!.

ينتهز أحد الجيران فرصة أن أبو الحسن انشغل بجذب نفس طويل من سيجارته وقال: وهل قامت الشرطة بحل المشكلة؟.

ضحك أبو الحسن وقال: تسلّم مدير الشرطة العريضة

وقال إنه سيري ما يجب عمله، هل يجب أيضا أن نعلّمهم كيف يقومون بعملهم، مضت عدة أيام ولم يحرك ساكنا، هل سرقة غابة عمل مشروع؟ يضحك بصوته الجهوري، لا بد أن تلك المقولة صحيحة، اسرِقْ شيئا صغيرا تقبض الشرطة عليك، اسرِقْ شيئا كبيرا جدا تحرسك الشرطة! لكن هذا الشرطي يغامر بمستقبله، يضحك بصوت أجش ينفجر في الهواء في دوائر زلزالية مثل الرعد: سيرى كيف أتعامل مع إهماله لمصالح المواطن، سيدفع ثمنا باهظا، سأشكوه إلى رؤسائه وسأطلب نقله إلى نقطة في الصحراء حيث لن يجد أحدا يكلّمه سوى الجن، أحد تلاميذي الأوفياء وصل إلى رتبة اللواء، لا أدري كيف استطاع الوصول إلى ذلك بهذه السرعة، إنه صغير جدا، يضحك بصوته الأجش، أتذكر كيف كان مشاغبا في الفصل وكان يسرق أحيانا، وضع يده على جبهته كمن يتذكر شيئا وقال: ليس أحيانا، لقد سرق عدة مرات، كان يسرق الأوراق والأقلام وثمار الدوم من زملائه، ومرة تجرأ وسرق جرس المدرسة نفسه، يضحك، يا له من مشاغب عنيد، استدللنا على الجرس من رنينه، بعد أن وصل إلى البيت لم يتوقّف عن قرع الجرس حتى حضَرْنا لاستعادته، أوقف إخوته الصغار في صف مدرسي مستخدما الجرس، وكان يجلدهم برفق على أخطائهم الصغيرة أثناء الطابور، غريب أن مشاغبا مثله كان يحاول تطبيق نوع من النظام في بيته، يضحك، وفجأة يصبح لواء في الشرطة، يا لها من مهزلة! لا بدّ أن أحد أقاربه ساعده للوصول إلى هذا المكان، يضحك بصوت جهوري، لن أقبل أية مساومة في مسألة الغابة، إنها مسألة مبدأ، سأطلب إحضار كل الحطب الذي قطعه

هذا المخادع، قطعة حطب واحدة ناقصة ستعني مشكلة كبيرة وسيذهب مدير الشرطة إلى الصحراء، سيذهب مدير الشرطة إلى الصحراء، يضحك ويردد كلمة الصحراء عدة مرات كأنما ليوحي بأن له مقدرات تحيل السهول الخضراء إلى صحاري جرداء.

يستغل جار آخر صمته المفاجئ ويقول: لكن الحطب تم بيعه كله!.

سيكون ذلك من سوء حظه، أعرف شخصا آخر يعمل في مصلحة المساحة، كان تلميذا نظيفا يهتم بملابسه ونظافة جسمه، الوحيد الذي كان يستحيل أن تجد في شعره قملا، بقية التلاميذ كان يمكن مشاهدة القمل يسير في رؤوسهم في خطين أشبه بشوارع الأسفلت، يضحك بصوته الأجش، لكنه كان سيئا في دروسه،، يضحك، يجهل تماما كيف يتعامل مع الأرقام، لا يحفظ شيئا ولا حتى بالعصا، لقد أسديت له معروفا كبيرا، يضحك قائلا بحيث بدت العبارة جزءا من بقايا ضحكته التي تناثرت في الهواء مخلفة في المكان شعورا بالفوضى: يا له من مغفل! كنت لا أضربه أبدا حين يرتكب الأخطاء يوميا، كنت أقول له: لا فائدة من ضربك، الضرب في الميت حرام! لو كان يودّ إحراز تقدّم في مستواه لكان جديرا به أن يطلب منا ضربه طوال اليوم! الآن حان الوقت ليرد لي هذا الجميل، لقد كان نحيلا جدا وما كان بوسعه تحمّل الضرب! مرة واحدة أقدم مدرس آخر على ضربه، هل تعرفون ما فعل؟ يا للمهزلة! يضحك بصوت أجش: لقد تبوّل في ثيابه! كانت ستحدث كارثة، الآن أحتاجه، لا أستطيع أن أذكّره

بماضيه لكنني قطعا سأضحك حين أراه وقد أصبح مسئولا كبيرا، سأتذكّر لوحدي كيف كان موقفه سيئا والسائل الساخن يتدفق من ثيابه! لا أدري ما هي العلاقة بين البول ومصلحة مهمة مثل المساحة، أصبحت كل الأشياء قذرة!.

يضحك، لا أعرف كيف استطاع النجاح وأن يصبح موظفا مرموقا في مصلحة المساحة! لا بدّ أنه يعرف شخصا ما ساعده في الوصول إلى تلك الوظيفة! سأطلب منه أن يعيد مسح هذه الأرض ويعيدها إليّ أنا صاحبها الحقيقي ويذهب معي إلى المحكمة حتى يدفع لي هذا البائس تعويضا عن السنوات التي استغل فيها هذه الأرض دون وجه حق. إن لم يتعاون معي قد اضطر لرواية قصة البول تلك!.

أما قضية بيع حطب أرض متنازع عليها فهذه قضية جنائية، إنها سرقة في وضح النهار، وإذا لم يستطع مدير الشرطة حل هذه المشكلة فما فائدة وجوده هنا، ليس لدينا مشاكل كثيرة في هذه القرية، لا يوجد لصوص سوى لص واحد تقاعد عن عمله بسبب الشيخوخة وبسبب فقدان أسنانه في حادث نهري. لا تتشاجر النسوة هنا لأن معظمهن مسنّات، فقدن الرغبة في الشجار، يقضين معظم الوقت في النوم وفي وضع السعوط في أفواههن، يمارسن فقط أحيانا، بسبب الملل، نميمة طيبة يستعدن فيها ذكرى بعض الشجارات العادية في القرية. من يريد أن يشرب الخمر يغلق باب بيته عليه، فلماذا يجب أن يكون هنا رجال شرطة يتعيّن علينا أن ندعوهم بين الحين والآخر لتناول الطعام لأن واجب الضيافة

يفرض علينا ذلك.

إن كانوا لا يستطيعون منع بيع غابة صغيرة فلماذا يبقون؟ إن رحل رجال الشرطة فإن باستطاعتي أن أجعل آخر لص في القرية يوقّع على تعهّد بعدم العودة إلى السرقة حتى وإن شعر بالجوع. إنه رجل طيب أثق في تعهّده، لو أنه جاء إلى المدرسة لما تعلّم السرقة وربما لأصبح رجل شرطة هو نفسه، يستطيع اللصوص معرفة بعضهم البعض!.

يضحك بصوته الجهوري ويقول: سيخطئ ذلك الشاب الذي أصبح مديرا للشرطة، أعرف رجلا في رتبة اللواء، كان أحد أفضل تلاميذي، سأخبره بالأمر وعندها سيجد مديرنا نفسه في الصحراء، أكرّر الصحراء، بعض البؤساء يفيدهم البقاء هناك، لن تجد أحدا يكلمك، تضطر أن تكلم نفسك، تتأمل العالم، وتحصي النجوم، ومهرّبي الإبل الذين لا تستطيع إلقاء القبض عليهم، إنهم مسلحون جيدا بأسلحة حديثة وليست مثل هذه البنادق القديمة التي ورثَتها حكومتنا عن الانجليز، حين تكون وحيدا في الصحراء، هناك أيضا فوائد، تهبط عليك حكمة لن تجدها ولو بقيت مائة عام وسط الآخرين، سيكون محظوظا، لكنه سيفتقد الغذاء الجيد وسهرات الشراب السرية، لا يوجد في الصحراء من يصنع الخمور حتى يذهب رجال الشرطة لمصادرتها واستخدامها لأنفسهم. بإمكانه أيضا تعلّم صناعة الخمور البلدية بنفسه، الأمر بسيط للغاية، كنا نفعل ذلك قبل سنوات حين كنا نعمل في مدرسة نائية، صمّمنا بأنفسنا جهاز تقطير بدائي لكنه فعّال، أذكر صديقي

الذي صمّم الجهاز، كان ذلك باعترافه العمل الوحيد المفيد الذي قام به طوال حياته. كان أحدنا يذهب إلى سوق القرية الأسبوعي مرة في الشهر لشراء بلح الجاو، وهو رخيص السعر لأن طعمه رديء، كأنك تأكل قطعة خشب معطونة في الصمغ، لكنه جيد لصناعة الخمر. يحضر لنا الصبية الماء بالبرميل من النهر. نهاية العام اكتشفنا، أننا شربنا عشرين برميلا من الخمر الرديء!.

يقاطعه أحد الجيران هامسا: انظر من جاء هناك، إنه مدير الشرطة!.

مدير الشرطة، وهبّ أبو الحسن واقفا كمن لدغته عقرب مناديا على ولده: أحضِر كرسيّا يا ولد لمدير االشرطة، لا يصحّ أن يجلس معنا على الأرض، هؤلاء الرجال يشْقون طوال اليوم لحفظ الأمن فكيف نجعلهم يجلسون على الأرض. اجلس يا سيدي، زيارتك مثل وجودك في هذه القرية أشياء تسعدنا، انظر لقد هجر كل اللصوص القرية بفضل جهدك، لم يبق سوى واحد فقد حتى أسنانه ولم يعد مصدر خوف، لولا وجودك يا سيدي لحضر مزيد من اللصوص، هذه إحدى مشاكل طريق الأسفلت هذا، إنه دعوة للصوص للتجول بسهولة من مكان إلى آخر. أحضِر القهوة يا ولد، وأخبرهم أن يجهّزوا طعام غداء يليق بمدير الشرطة، اجلس يا سيدي.

لكن مدير الشرطة رفض أن يجلس، قال إنه مشغول ويريد فقط إخطار أبو الحسن أنه اتفق مع جاره أن يتنازل له عن نصف

الحطب الذي قطَعه من الغابة في الأرض المتنازع عليها.

إنها العدالة بعينها يا سيدي، ويضحك بصوته الأجش، انظر لولا وجودك في هذه القرية لما حصلتُ على عود واحد من هذه الغابة وأنا الذي أعيش بمعاش قليل بعد أن علّمت آلاف التلاميذ، بعضهم يعمل الآن مدرّسين وبعضهم في مصلحة الغابات. لنحيّي هذا الرجل يا إخواني، لولا وجوده لأصبح عدد اللصوص في هذه القرية ضعف عدد الآخرين، ولَتشاجر اللصوص حول من يسرق فلان.

مضى رجل الشرطة في طريقه بخطوات نشيطة وواثقة، علّق أحد الجيران قائلا: لا يبدو كشخص يسير إلى الصحراء!.

وقال جار آخر: تعجبني خطواته النشيطة المستقيمة كأنه عود من الخشب، أشعر بالحسرة منذ أن أصابتني آلام الظهر لم أعد أستطيع المشي إلا بعكّاز!.

قال أبو الحسن: هل تشكو من آلام في ظهرك؟ سأخبر أحدهم ليساعدك، أعرف طبيبا متخصّصا في العظام، كان أحد تلاميذي، كان مهملا في منظره يرتدي دائما ملابس قذرة وينتعل حذاء مثقوبا، لكنه كان جيدا في الحساب، كان سيئا في المواد الأخرى حتى أنني دهشت كيف تمكّن أن يصبح طبيبا، لا بدّ أن أحد معارفه ساعده في ذلك...

الشيطان وعسكري البلاستيك

عشية عيد الفطر كنا نتحلّق حول والدتي في الفناء وهي تغسل كومة من الملابس على ضوء مصباح الزيت، سمعنا صوت نهيق حمار يمزق صمت الليل. قال أخي: إنه حمار جارنا سيد، وصمت قليلا قبل أن يتذكر شيئا: هذا الحمار معتاد على قطع رباطه والاعتداء على مزارع الآخرين، لا بد أن شخصا ما يضربه الآن!.

قالت أمي: هذا ليس حمارا.. إنه شيطان!.

قلت: ألا تُحبس كل الشياطين في رمضان؟

قالت أمي: نعم، لكن مساء اليوم الأخير في رمضان يُعاد إطلاق كل الشياطين.

شعرت بالخوف، سأبدأ بالذهاب إلى المدرسة قريبا، لا مشكلة صباحا، سأذهب مع أخي، لكن عند العودة يجب أن أعود وحدي لأنني سأغادر المدرسة مبكرا وسأقطع طريقا مليئا بأشجار كثيفة، سمعت من أخي أن الشياطين تسكن فيها.

حكاية الشياطين جعلت أمي تتذكّر شيئا فتوقّفت عن غسيل

الملابس ريثما تعدّ الجمر في موقد صغير من الفخار لتطلب من أخي تبخير البيت كله لطرد الشياطين.

قالت: مفروض أن نطلق البخور مجرد غروب شمس اليوم الأخير في رمضان!.

عدنا بعد طرد الشياطين التي لاحقها أخي حتى الشارع وهو يشتمها بألفاظ قبيحة، ذكّرْته أن أمي منعَتنا من استخدام تلك الألفاظ، فقال لي إنه لم يسمع أمي تحذّرنا من استخدامها ضد الشياطين.

بعد أن فرغنا عدنا لنتحلّق حولها، أوصتنا في حسم أن نبدو عند زيارة قبر والدي في مظهر حزين ونقرأ الفاتحة على روحه ثم نغرس جريد النخيل فوق القبر.

سألت والدتي نفس السؤال الذي سأله أخي العام الماضي: لماذا نغرس جريد النخيل فوق قبر والدي؟، فقالت: إن هذه عادة قديمة، يحمل الناس في أيام الأعياد جريد النخيل ويضعونه على قبور ذويهم وحتى تجفّ أوراق النخيل يتوقّف عذاب الموتى في الدار الآخرة. شعرت بحزن لم أعرف له سببا، وقال أخي: لماذا لا نزرع شجرة نخيل فوق القبر حتى لا يتعذّب أبي أبدا!، نظرْت إلى أمي فوجدت أنها تفكّر كيف تردّ على كلام أخي ثم انشغلت بغسل الملابس.

تذكّرت بشوق تفاصيل يوم العيد الماضي، حين ذهبنا للمرة الأولى لزيارته. لم تكن قد مرّت سوى بضعة أشهر على وفاة

والدي. في المقبرة كنّا أول الواصلين، كان هناك عدد كبير من الصبية يلبسون ملابس العيد البيضاء الجديدة، كنا أنا وأخي نلبس ملابس قديمة أصلحَتها والدتي لكنها كانت نظيفة وناصعة البياض كأنها جديدة.

بعد صلاة العيد تفرّق الناس لزيارة ذويهم الموتى. وجدت أحد أقاربي، وكان يكبرني بسنوات، يجلس بهدوء جوار قبر والده كأنه يحرس شيئاً ما، ولم يكن يبذل جهدا يُذكَر مثلنا لإظهار الحزن. سألته لماذا لم يحضروا جريد النخيل لوضعه على قبر والده، فقال: ستحضره والدتي في ما بعد. قلت له والدتي حضرت مبكرا لزيارة زوجها الميت فلماذا تتأخر والدته، فكّر قليلا ثم قال لي: والدتك تحضر للسنة الأولى، لا بدّ أن ذكرى والدك لا تزال حية في قلبها، أما أمّي فهي تحضر هنا منذ حوالي عشر سنوات، وفي السنوات الأخيرة لم تعد تذكر والدي كثيرا، لقد تضاعفت مسئولياتها، رغم أن أختي الكبري تزوّجت لكن لا تزال هناك أخت أخرى.

غرس أخي الذي يكبرني بعام جريد النخيل فوق القبر، ثم وقفنا معا نرقب والدتي وهي تدعو لوالدي وتمسح الرمال والحصى فوق القبر.

سألتُ والدتي هل ستذهب غدا مبكرا لزيارة والدي أم ستذهب متأخّرة مثل والدة الصبي الذي وجدناه في المقبرة في العيد الماضي؟، لم ترد والدتي ورأيتها تبكي بصمت فسكتّ عن الكلام.

كان الوقت قد تأخّر. طلبَت منّا والدتي أن نذهب لنخلد

إلى النوم حتى نستيقظ مبكرا ونذهب لأداء صلاة العيد وزيارة الموتى. لكننا لم نكن نرغب في النوم، وقال أخي: سننتظر معك حتى تنتهين من غسيل الملابس.

لكن أمي قالت إن ذلك سيستغرق وقتا طويلا ولا داعي للانتظار.

طلب منها أخي أن تتوقف عن غسل بقية الملابس لتكملها في وقت آخر، لكن أمي قالت إنه يجب أن تصبح كل الملابس المتسخة في البيت صبيحة العيد نظيفة وإلا فإننا سنبقى بملابس متسخة حتى العيد القادم.

فكر أخي بصوت عال: ما دام بإمكاني اللعب طوال العام دون أن تتسخ ملابسي فإن ذلك يستحق بعض التعب، عارضا على والدتي مساعدتها في نقل الملابس التي فرغ غسلها لتعليقها على حبل الغسيل، لكن والدتي طلبت منه أن يعيد الطواف في البيت بالبخور للتأكّد أن كل الشياطين قد خرجت.

كانت النار قد انطفأت في الموقد فأعدنا إشعالها ثم نثرنا فوقها البخور وأعدنا الطواف في البيت. تذكرنا أننا لم نبخِّر المخزن الكبير الذي يقع في الركن البعيد من الفناء وتحتفظ فيه والدتي بمحصول التمر الذي نجنيه من النخيل الذي تركه والدي. قلت لأخي لا داعي لأن نبخّره، المخزن مليء بالعقارب والفئران وليس المكان المناسب لتقيم فيه الشياطين. ضحك أخي وقال: بالعكس لو كنت مكان الشيطان لاخترت البقاء في المخزن. يوجد تمر كثير. كما إنه بعيد عن أصوات الجيران وشجارهم.

قلت لأخي: هل يحبّ الشيطان الهدوء؟.

قال: نعم، ألم تسمع بأنهم يقطنون دائما في البيوت المهجورة بعيدا عن الناس؟.

قلت: لكن الشيطان يحبّ الشجار!.

قال أخي: كيف عرفت؟.

قلت: حين تشاجر جارنا وزوجته قبل أيام بسبب أنه يعود مخمورا آخر الليل ويضرب الأطفال قالت أمي إن الشيطان دخل بينهما!.

حين فتحنا باب المخزن تسرّب منه هدوء غريب، بدا لنا كأنه لا يمتّ بصلة إلى عالمنا الذي نعرف. لم تجعلنا صدمة الهدوء الخارق الذي اخترق عظامنا نتراجع، بالعكس شعرنا بها تدفعنا إلى الأمام. كان المخزن خاليا، لم يَحِن بعد موعد قطع التمور، وتمر العام الماضي سحبته والدتي شيئا فشيئا وباعته لتغطي منصرفات حياتنا. على الأرض في مؤخرة المخزن كانت هناك شمعة مضيئة تثير من حولها دوائر رذاذية من الضوء. لم نندهش، بدا لنا وجود الشمعة متناغما مع الهدوء الصاعق في المكان، ما لفت نظرنا أن خيطا من الضوء كان يرتفع من الشمعة في خط مستقيم إلى السقف، بدا ضوء المصباح الذي نحمل باهتا مقارنة بضوء الشمعة. اقتربنا منها وكأننا منوّمَين، جلسنا حول الشمعة التي بدأ حجمها يزداد حتى احتلّت نصف حجم المخزن، أصبحَت مثل شجرة بيضاء عملاقة ذات فروع ترامت بسرعة في كل الاتجاهات، تقدّم أخي

ليتسلق الشجرة دون أن يكترث لإلحاحي له بأن نغادر المكان، تبعْتُه بدافع الخوف من التراجع وحدي، مدّ أخي الذي اختفى جسدُه داخل أغصان الشجرة البيضاء يدَه وسحبني إلى أعلى، في اللحظة التي ارتفع فيها جسدي سقطنا نحن الاثنان داخل حفرة من الضوء كان خيط الضوء المنبعث من الشمعة يتدفّق فيها بهدير مثل السيل، جرينا لنبتعد عن هدير الضوء فوجدنا أنفسنا في مكان غريب يشبه مدينة خرجت من أحد الأحلام. حولنا شاهدنا صفوفا من البيوت المعدنية الصفراء، تجوّلنا في الشوارع الخالية، كل شيء ثابت في مكانه، حتى أشجار النخيل المزروعة على جوانب شوارعها كانت كلها تبدو وكأن عصا ساحر عملاقة أوقفت حركتها وأوقفت الزمن من حولها. لم نر كائنا يمشي، دخَلْنا إلى أحد البيوت، كل شيء مرتّب ونظيف، بيوت رحبة يتسرب إليها الضوء من خلال نوافذ النحاس. مقاعد صغيرة وأراجيح منصوبة للأطفال في الأفنية وأكوام من الألعاب حولها، تفحّصت كومة الألعاب بدافع الفضول فوجدت شيئا غريبا، حتى أنني صرخت دون أن أشعر: وجدتها!.

أشار لي أخي بغضب أن أصمت. عثرت على لعبة فقدتها منذ شهور وقلبت البيت كله بحثا عنها دون جدوى. لعبة بلاستيكية خضراء اللون أهداها لي أحد أقاربنا: دمية في صورة جندي يرقد في وضع تأهّب لإطلاق النار وتغطي رأسه قبعة عسكرية ضخمة تشبه أطباق السعف التي تُستخدم لحفظ الخبز. حين تسلّمت تلك الهدية قرّرت حين أكبر أن أعمل في الجيش.

ضحك رجل مسنّ من أقارب والدتي كان يزورنا يوم عيد الأضحى حين سمع بأمنية حياتي الجديدة وقال:

هناك لا يعمل أحد!.

قلت له: سأقرأ ليلا ونهارا حتى أنجح وأحقق تلك الأمنية!.

ضحك العجوز الحكيم وقال كلاما لم أفهمه: ربما لن تحتاج لكل ذلك!.

وجدت اللعبة وسط مجموعة من الدمي النحاسية، نظّفتها من التراب الضوئي العالق بها واحتضنتها بقوة. قبل شهور حين لم نعثر لها على أثر، اتهمت جميع الناس بسرقتها. اتهمت أخي وجارنا الصغير الذي كان يحضر أحيانا برفقة أمه، قالت أمي: لاحاجة بأحدهم لسرقة جنودك البلاستيكية.

وقال الرجل المسنّ حين زارنا في المرة التالية ليُحضر لأمي شيئا ما: ما إن تخرج إلى الشارع حتى تجد كثيراً من هذه الدمى التي لا تصنع شيئا سوى إزعاج الناس!.

كنت أحتضن لعبتي بقوّة حين سحبني أخي لنواصل تجوالنا في المدينة التي لم نر فيها بشرا. مرَرنا بحوانيت جميلة مليئة بالبضائع الملونة وبمحلات الفواكه والخضروات. تبدو الفواكه من على البعد يانعة كأنها لا تزال في أشجارها، لكن حين اقتربنا منها اكتشفنا الملمس النحاسي البارد. بدأ الخوف يتسرّب إلى قلبينا، كان الصمت الخارق قد تسرّب ببطء إلى قلبينا.

أشار أخي فجأة إلى شخص بعيد في نهاية الشارع وصرخ: إنه

أبي!.

كان حقاً أبي! عرفناه من ملابسه. أشار لنا بيده بنفس الطريقة التي كان يدعونا بها للعودة إلى البيت حين كنا نلعب في شوارع القرية قبل سنوات مع الأطفال بكُرَة الشراب، جرينا نحوه حتى انقطعت أنفاسنا فيما يدي تمسك بقوة على دمية العسكري الذي يتأهّب لإطلاق النار. توقفنا لنلتقط أنفاسنا لنفاجأ بأننا لم نقترب من أبي وأنه كان يزداد ابتعادا كلما اقتربنا من المكان الذي يقف فيه، نادى عليه أخي حتى انقطع صوته فيما هو يبتعد، يتحوّل إلى نقطة بيضاء صغيرة تلوح من على البعد. توقّفت لألتقط أنفاسي لكن أخي سحبني بقوة لأواصل الجري، سالت دموعنا وتمزّقت ملابسنا ونحن نطارد نقطة البياض التي استحالت إلى ومضة ضوء تعلّقت بخيوط السراب. ورغم ذلك لم نتوقف عن الجري والبكاء. يتوسّل إليه أخي بالصراخ أن يتوقّف حتى تحوّل صوته إلى فحيح اختلط مع صوت الرياح فاستحال إلى ضجة أشبه بقرع الطبول، ورغم ذلك لم يتوقّف أبي.

شعرنا بأنفسنا جزءا من متاهة الرياح التي اكتسحت المدينة النائمة في سبات نهار دون حدود، حتى أَصَمَّت الضجة آذاننا قبل أن تخفت فجأة ويبرز وجه أمي في ضوء الصباح.

قالت: هل ستنامان يوم العيد حتى تشرق الشمس؟، انتبهتُ عندها إلى بيتنا ورأيت الدمية الضائعة للعسكري الذي يتأهّب لإطلاق النار ترقد جوار صدري.

قالت أمي: متى عثرت على لعبتك؟.

قلت: لم أعثر عليها أنا!.

قالت أمي: ومن الذي عثر عليها؟.

تردّدتُ قليلا قبل أن أقول: عثر عليها الشيطان!.

تركَتني أمي وأنا أسأل: هل يوجد شياطين طيبون؟.

زول طيّب

كان حاج عبدالله يجلس وحيدا فوق تلّ الرمال أمام دكان حاج سليمان. يبدو بطاقيته الحمراء الممزّقة الأطراف، ووجهه الجاف ببقايا الشلوخ التي اختلطت مع تجاعيد الوجه بسبب الفاقة والزمن، وجلبابه الطويل الذي لم يعد له لون محدّد، والذي يخفي قدميه، مثل شجرة غريبة نبتت فجأة في الرمال. يستمع دون اهتمام إلى لغط النسوة اللائي يشترين بعض احتياجاتهن من داخل الدكان، الذي تحجبه فراندة نصف متهدّمة انتصبت شجرة سيسَبان على جانبها، كأنها تخفي الجدار الذي تهدّم بسبب مياه فيضان نهر النيل، التي أغرقت المكان قبل سنوات.

جاء بعد قليل حفيده الزين جاريا. كان هناك ضيف من إحدى القرى المجاورة يقف أمام البيت سائلا عن حاج عبدالله.

أحضر حاج عبدالله الشاي للضيف بعد أن أدخله إلى المضيفة الصغيرة. يبدو أن الضيف كان متعجلا قليلا، فقد بدأ الكلام قبل أن يصبّ له حاج عبدالله كوب الشاي.

عرّف نفسه: أنا ساتي ود شيخ الأمين، والدك كان زمان اشتغل

مع والدنا في إدارة المشروع التعاوني، لكن الزمن دا مع المشاكل والشغلة الناس بقت ما بتتعارف. عندنا في الحقيقة بت كانت قاعدة ما اتزوّجت، زي المعمول ليها عمل، البنات الأصغر منها عرّسن، إلا هي قعدت، وهسّع كبرت شوية، وبقت تجيها مرات حالات نفسية كدا، تحرد الأكل والكلام. قلنا نحاول نزوّجها يمكن أحوالها تتصلح. الزول الكان متزوّج بِتّكم دا جا قبل أيام طلبها، قلنا ناخُدْ شورتكم ونعرف ليه هو طلّق بنتكم؟

رحّب عبدالله مرة أخرى بشيخ ساتي، صبّ له كوب الشاي وصبّ لنفسه كوبا آخر، وأمسك بالكوب في يده وقال وهو ينظر إلى الكوب وكأنه سيستخدمه ليقِيم الحجة على ما سيقول: حليل زمن المشروع التعاوني، الدنيا كانت بخيرها، والناس بالقليل حالها مستور.

صمت قليلا ثم قال وهو يجلس بجانب الضيف على العنقريب: والله الطلاق حصل بس عدم اتفاق وقسمة، هو زول طيب، لكن مرّات كان يقوم بدون سبب يضرب الناس، ولو لقى أي حاجة قدّامه يكسرها!

حاجة زي شنو؟

كباية، صحن، زير موية، لكن هو زول طيب! بعد يكسر الزير يقعد مسكين يبكي، الظاهر يتذكر إن الأزيار غالية بعد يكسرها، لكن هو زول طيب.

قال شيخ ساتي وكأنه كان يتوقّع مصيبة أكبر: الزير هيّن، هسّع

الكهرباء جات، بتقطع مرات لكن أخير من عدمها، الله أعلم ما أظن يقدر يكسر التلاجة، وتاني مشكلته شنو؟

والله الزول دا زول طيب جدا، زي الطفل، لكن بس أحيانا عنده جن كدا، لو حضر أهل زوجته في زيارة، لازم يعمل مشكلة معاهم ويطردهم من البيت. زوجته مشت للفُقَرا قالوا عين، أدّوه بَخرات يستعملها ومِحَاية يشربها، دفق المِحَاية في الأرض، ولمّ في البخرات ولّع فيها النار! لكن هو زول طيب، الغضب الشديد دا من الطبع، لكن المهم الزول يرجع ويستغفر ربه!.

أها ومعاملته مع الأطفال كيف؟

والله كويس، لكن مرات وكت الجن يقوم عليه، بيقطع ليه عصاية نيم لينة ويقع في شُفَّع الجيران يدقّهم، بعدين بيعمل زي المدرسة يخلّي ولدين يشيلوا الولد العاوز يضربه. أنا قابلت الدكتور ولد ناس حسن الزين، كان جا هنا في إجازة من السعودية، حكيت ليه الموضوع قال لي الزول دا عنده مرض نفسي والعياذ بالله. الظاهر في طفولته كان بيدقّوه في المدرسة شديد عشان كدا داير يخلص الدقّ الدقّوه ليه في الأولاد المساكين! لكن هو زول طيب صراحة، وفي حاله، بيمشي الحوّاشة ويرجع البيت آخر اليوم! أنا قلت للدكتور لو حبوب ولا حاجة. جبنا ليه الحبوب، شال كبّاها في المرحاض، وضرب زوجته، قال ليها دايرة تجنّنيني رسمي بالحبوب! تقول بِقَت على الحبوب عشان يجن رسمي! لكن هو زول طيب، يعني ما شفنا منه عوجة كتيرة!.

أها ومعاملته مع الجيران كيف؟

كويس، في رمضان بيجيب فطوره ويجي في المسيد، مع إنه مرّات ما بيصوم. في ناس قالوا الجن بتاعه نصراني، مرّة كان في عزاء في المسيد، واحد من الأولاد وزّع مصاحف، مسك ليه مصحف وقرأ شوية فيه، فجأة قفل المصحف وكان ظاهر عليه متأثر وفي دموع في عيونه وقال: مسكين يا عيسى! ظلموك الأنبياء! (قالها كدة بحنّية زي كأنه بيعرف سيدنا عيسى!) لكن بيصلّي معانا العشاء.

مّرة الشُّفّع كانوا بيتونّسوا بخلف المسيد بصوت عالي في أثناء الصلاة، قام قطع صلاته وجا لمّ في الشُّفّع بعكازه لامن شردوا كلهم، بعد الصلاة العَشاء اتأخّر لأن الشُّفّع الطردهم مفروض قبل نهاية الصلاة يجيبوا العَشاء من البيوت! مرّة كان تعبان نام بعد صلاة التراويح قبل ما يتعشّى، الجماعة نِسُوا يصحّوه وخلّوه نايم في المسيد، الظاهر خافوا لو قام من النوم يضربهم ولا حاجة. صحّوه عشان صلاة الصبح، الظاهر كان تعب في صلاة التراويح، قال ليهم: الدّفَسِيبة القَبْل شوية دي ما كان فيها صبح؟! لكن زول طيب وعلى نيّاته، الغنماية تاكل عشاه! مرّة قبل كم سنة في غنماية دخلت زراعته، لمّ فيها ضبحها وفرّق لحمها في الحلة، الناس مساكين! في جوع في البلد، ما في زول سأل اللحم دا من وين، قالوا كرامة سلامة وأكلوها!.

زول طيب، الغنماية تاكل عشاه، لكن ما تَقْدَر تاكل من زراعته وإلا تبقى كرامة في الحلة! لكن زول طيب والله وابن ناس، أبوه كان راجل طيب، لكن جنّ في آخر العمر ولمّ الكيزان! عنده يافطة كلما يجي السوق يرفعها في الدكان، مكتوب فيها: لا تبديل لشرع

الله! الناس قالوا ليه إنت زول مستور، مافي سبب يخليك تلمّ الحرامية آخر عمرك. الظاهر تعب من الفَقُر وقال أحسن يرتاح شوية، أهو الدنيا كدا! لا راحة في الدنيا ولا فرارا من الموت، هو برضه كان زول طيب! مسّكوه إدارة الغابات قطع الشجر كله عملوا فحم وباعه! لكن كان زول مجامل، أي مناسبة في الحلة يجي أول واحد، ومرّات يمسك الكشف في المناسبات. في عرس الطاهر ود عمّنا الزين، مسك الكشف، وبقى يمشي يشجع الناس يقول ليهم الطاهر محتاج للمساعدة تعالوا أدفعوا، أها وكت الناس كلها تقريبا دفعت، جمع القريشات واختفى، قالوا كان مديون مشى سدد الدين وفي ناس قالوا الزول دا كان طالب الطاهر قروش، ولقاها فرصة خلص القروش، اختفى فترة قالوا مشى الدفاع الشعبي، رجع بعد فترة بدقن كبيرة وغرّة صلاة، الدقن سمحة، لكن غرّة الصلاة ظاهر عملها بحجر ولا حاجة، قالوا في ناس بيعملوها بخمسة جنيه في سوق ليبيا! بتاعته يمكن تكون كلّفت أقل من كدة! لأنها ظاهرة ما أصلية! رجع حكومة، مافي زول يقدر يسأله يقول ليه سرقت قروش الكشف ليه! ولو في الزول اتكلّم عن بيع الفحم وشتول المسكيت بدون إيصال، طوالي يجيب ناس الأمن يقول ليهم الزول دة علماني والعياذ بالله! وفي العلماني كمان أكعب نوع: شيوعي! ما داير حكم الله! لكن كان زول مجامل وفي حاله! وآخر أيامه عملوه إمام في الجامع، وكت يوعظ الناس يبكي! وينزل من المنبر يبيع الفحم، حيعمل إيه المعايش جبّارة وأسعار الفحم كويسة!.

وكت الغاز ظهر والناس رسّلوا لأهلهم في السعودية رسّلوا

ليهم بابور الغاز، مسكين، الفحم بقى ما بيتباع كويس، حاول ينوّع في الشتول لأن الحكومة منعت بيع شتول المسكيت قالوا بيخرب الأرض، وناس الحكومة دايرين الأرض يبيعوها.

نظر شيخ ساتي حواليه محتارا، ثم تشبّث بالأمل مرة أخرى، رغم أن الأمل كان (ينَاتِل) محاولا الهروب! نظر إلى ظل الجدار محاولا تقدير الوقت، ثم قال: وفي الشغل كيف، ناجح في زراعته؟

زراعته سمحة، يرمي شوال قمح ويشيل أربعين! الناس قالوا بينجّح القمح بالسماد! مع إنه هو بينكر أنه بيستعمل السماد، ناس قالوا عنده جن نشيط بيزرع معاه!.

في السنين الأخيرة إنتاجه نقص ما زي الأول، ناس قالوا عصَر الجن في الشغل، يخلّيه الليل كله سهران يقرع الموية، وكت تعب شرد خلى البلد، لكن الحقيقة المزارعين الكويسين في السنين الأخيرة ما بيحبوا يزرعوا معاه، مرّة العيش اتسرق من القيساب قبل يوزّعوه بين المزارعين، الناس قالوا لقوا أتر أقدامه! الظاهر جا آخر الليل سرق العيش! دا كلام الناس، لكن بعض الظن إثم، مافي زول شافه! كان مشى اشتغل فترة في البلدية مع ناس الحكومة، والظاهر اتعلّم السرقة هناك! لكن هو راجل طيب، والناس كلها بتغلط، المهم الزول ما يشيل في نفسه حاجة من الناس!

ومع ناس البيت كيف، كان بيجيب الطلبات وما منقّص عليهم حاجة؟.

ما بيقصّر، وكت سكّر التموين يجي بيكون أول زول واقف

في الصف! يحب القهوة، ويحب شاي المغرب. دائما يقول شاي المغرب أهم من العشاء! لكن مرّات وكت الجن يقوم عليه، يقفل نفسه في البيت كم يوم، يخت الرّادي جنب راسه، واليوم كله يسمع الأخبار، لو جا زول قال ليه في حاجة ناقصة يقول ليهم دقيقة بس في أخبار مهمة أسمعها وأقوم، لو ما حجارة البطارية انتهت ما يقوم، بعدين وكت يتابع الأخبار يبطّل أي خدمة تانية، أيام حرب الخليج حضن الرادي لغاية الحرب انتهت! لو ما كان في شوية ويكة وقمح في المخزن كان ماتوا بالجوع لغاية ما بوش يمرق صدام من الكويت! بعدين يقول ليك أنا ما بنوم إلا بالراديو. قبل فترة قبضونا في شَكْلة في السوق، لقيته شغّال ضرب في ناس البوليس جيت أحجز قبضوني أنا ذاتي معاهم. في الحَراسة قلت ليه إنت طبعا ما حتقدر تنوم بدون راديو! قال لي لأ حأكون صاحي للصباح! لسة ما يكمل كلامه شخر، نام للصباح إلا العساكر صحّوه! لكن رجل طيب وخدوم، وكت يكون في فراش في المسيد يتولى عمل الشاي والقهوة! ناس قالوا لأنه بيحب شراب الشاي والقهوة بيلقاها فرصة عشان يشرب كتير مجان! لكن رجل طيب وفي حاله.

قال شيخ ساتي وكأنه عثر أخيرا على شيء إيجابي: القهوة والشاي هينين، نعَلّو ما بيشرب العرَقي؟

بيشرب شوية قبل ينوم، مرات وكت الموسم يكون كويس بيمشي الأندايات يشرب، مرّة دخل الأنداية ما مرق منها إلا بعد شهرين بعد ما قطع قروش الموسم كله! لكن زول طيب وفي حاله،

لو السكارى اتشاكلوا في الأنداية ولا في بيوت الأعراس بيقعد بعيد، ما بيتدخّل، يقول راسنا دا صرفنا عليه قروش عشان يتوزن، ما بنضيّع تعبنا ساكت نحجز الناس! إن شاء الله يكمّلوا بعضهم! لكن زول طيب وفي حاله!.

نعَلُّو بيشرب في الشارع؟.

لأ، بيشرب في البيت أو في الأنداية، زول ملتزم جدا، ولو ما صلّى العشاء ما بيقعد للشراب، دايما يقول: بعد العِشا مافي اختِشا. في ناس بيقولوا هو ما بيختشي من الصباح، لو الجن قام عليه، يطرد الناس ويقعد يسمع أخبار الحروب، يحبّ الحروب، دايما يقول: الحمد لله الإنجليز ما رسموا حدود الدول، خلّوها مطلوقة ساكت، عشان كدة الدول كل ما تلقى قرشين تجيب سلاح، يقوموا على جيرانهم!.

لكن كويس يعني بيعامل المَرَة كويس؟

والله هو زول طيب، بالذات وكت يشرب يبكي زي الجَنَا، المرة تسوقه تودّيه يبول وترقّده، وكت يشرب يبقى طيب، لكن ناس الحكومة منعوا الشراب وبقوا ينطّوا على الناس في البيوت ويشمّوهم لو لقوا ريحة عرَقي يجيبوك تاني يوم يجلدوك في السوق، هو مسكين، مرّة ناس الحكومة نطّوا في بيته، لقوه واعي، مسكين كان مفلّس ومشى حاول يستلف العرَقي أبوا يدّوه لأنه كان متديّن عرَقي كتير. دينه في الدكان ألف جنيه وفي الأنداية عشرة آلاف! لكن زول طيب، الفلس مرَقُه من الجلد في السوق، لكن ناس الحكومة قالوا ليه ما بنخليك ساكت، ما دام جبناك النقطة،

تبيت وتمشي الصباح! نام في الحَراسة مسكين بدون راديو، لكن زول طيب وفي حاله!.

وليه ما جاب أولاد؟.

والله مسكين ما فضى من العرَقي والراديو، يمكن لو ما حرب الخليج كان جاب ليه حاجة! بعدين ما وِعَى كتير، جا ساق البت دي يوم العرس وهو سكران، جابوه الجماعة شايلنّو شيل دخّلوه على عروسته! وكت طلّقها بعد سبعة سنين كان سكران برضو! وبرضو جوا نفس الجماعة شالوه شيل ودّوه بيتهم! مشينا للفقير أدانا مسحوق قال يشرب منه قبل النوم، رفض يشرب، المرة ختّت ليه شوية في شاي المغرب، اتضح بعد داك إن الفقير كذاب، كان بيجيب الحباية الزرقا يطحنها مع الحلبة ويدّيها للناس العندهم العجز الجنسي، يقول ليهم إنتوا معمول ليكم عمل، أشربوا من الأعشاب دي العمل بيتفكّ، أها سُمعته ضربت لحدود مصر والخلق كسروا عليه، الأعمى شايل المكسّر، ومعظم الناس كانت بتجيه بالليل عشان الناس ما يشيلوا حِسّهم! لكن زول طيب وفي حاله، لو سِكِر يبكي زي الجنَا، ينوم بالراديو وفي الصباح عينه ما تفتح لو ما هبش قزازة العرَقي تحت السرير بيده ولقى فيها حاجة! لكن زول طيب وفي حاله ويحب الناس.

كان شيخ ساتي يصارع في (الأمل) الذي كان يقاوم ليهرب، أمسك به من عنقه حتى لا يهرب، أملا في أن يجد شيئا ينعش الأمل قليلا: أها وعنده أخوان كويسين؟

عنده أخو واحد أصغر منه، زول كويس، بس شوية بتاع

مشاكل، كان فتوّة في الحلة يدقّ الناس، ولو مشى حفلة يفرتقها. الأولاد كان سامِّنُّه في الحلة المغناطيس، يحب الحديد، سرق الحديد الفي الحلة كله باعه لشركات الخردة، حتى سراير الحديد شالها، لو إنت نايم في الحوش في سرير حديد يجي برّاحة ينزلك من السرير ويشيله، الكويس ما يرميك في الواطة يجيب برش صلاة يختّك فوقه ويغطيك كويس عشان البرد بتاع أول الصباح ما يمرضك، ويشيل السرير يمشي يبيعه، الناس كلها رجعت لعناقريب الخشب. أها أيام كدا، وكت عدم الشغل، لمّ ناس الحكومة ومشى الجهاد، قبل يمشي الكيزان أدّوه شوية قروش وعربية واشتغل مع منظمة اسمها النشاط الطلابي، ديل قالوا يراقبوا الطلاب ويجنّدوهم لحزب الحكومة ويرسّلوهم الجنوب. عرّس قبل يمشي الجنوب، أها بعد فترة من سفره، سمعنا قالوا استشهد، جوا الجماعة في بيتهم رقصوا وضبحوا تور وأدّوا أمه ورقة قالوا عقدنا ليه على حورية، وواحد من الكيزان الكانوا معاه حلف بالله وقال جنازة الشهيد كانت طالعة منها ريحة المسك! نحن ضحكنا برّاحة وكت سمعنا الكلام دا، لأن المرحوم كان وكت حي ريحته ترمي الصقر! وكت يجي ماشي جنبك تقول في فطيسة جات ماشة! ما بالك وكت مات.

قالوا همّع بيكون مشى شهر العسل في الفندق في السما! واحد من المساخيط قال: أنا خايف لو لقى سرير حديد في الفندق في السماء يشيلو معاه! في ناس كانوا طالبنُّه قروش من حساب عرسه الأول، قالوا كيف يعرس تاني بدون يحاسبنا على حاجات العرس الأول! واحدين قالوا يا أخوانا نحن لينا سنين مرَة واحدة

ما قادرين نعرّسها كيف الزول دا يعرّسوه ليه مرَتين! قالوا لأ، دا شهيد وكوز، ممكن يعرّس مثنى وثلاث ورباع. وكت قالوا استشهد، ناس كتار عندهم شوية حديد في بيوتهم فرحوا وقالوا الحمدلله. بعد شهر من عرسه على الحورية رجع تاني، فجأة لقيناه حايم في القرية!.

بعّاتي؟

لأ، ما كان مات، الزي دة ما بيموت، الظاهر في زول مات وهو كان اتجرح، وكت جات البرقية عكسوا الأسامي، الناس المجروحين قالوا ماتوا والماتوا قالوا انجرحوا!.

وهسّع وين؟

بقى مسئول كبير في الحكومة، مع الجماعة ناس صندوق الطلبة. بنى البيت وصلّح أحواله وعرّس تاني تلاتة نسوان، يعني بقى عنده أربعة فوق الحورية! .

وكدا ما حرام لكن!

الناس قالوا يمكن وكت جا يعرّس الرابعة طلّق الحورية! لكن ولد كويس، لو قصدتُه في حاجة بيقضاها ليك، عندك زول مقبوض في شيك، زول اختلس قروش، داير ليك جبخانة، داير ليك شهادة مضروبة لولدك، كله بيجيبو ليك وياخد حقه، لكن ما طمّاع! وفي ناس قالوا بيبع السجائر الأخضر كمان!.

نعَلُّو بنقو!.

أيوة بنقو، أخضر حيكون نيم يعني! لكن زول طيب وفي حاله،

حتى سرقة الحديد بطّلها بعد بقى مسعول كبير، بقى يرمي لقدّام، في مسعول كبير بيسرق سراير ؟ دا شغل حرامية مساكين ساكت!.

سرح شيخ ساقي بنظره بعيدا، حاول (الأمل) الهروب، لكنه أمسك به وعصره تحت عجزه الضخم حتى صرخ (الأمل) وكادت تخمد أنفاسه ويفقد أي أمل! قال محاولا إعطاء مُحدّثه خيارات سهلة لإحراز أي نصر بأي ثمن يبرّر زواج ابنته: وعنده بهائم سمحة؟.

قال شيخ عبدالله: عنده تيس واحد مطلوق في الحلة، يجوا الناس يسوقوه عشان يفحّل ليهم الغنم، ياكل مع بهائم الناس، وشغّال عريس جماعي! وكت أحواله تتيسّر وموسمه يكون ناجح، بيشتري شوية بهايم، لكن في الصيف وكت يحتاج حقّ العرقي كل يوم جارّي ليه بهيمة من أضانها على السوق ومن السوق على الأندايا! لكن زول فاضل ما يتفضل عليك.

الكوز (المحترم) يواجه الإهانة في المحكمة

في الباحة الواسعة المواجهة للسوق خلف مبنى البلدية، جلس القاضي ومساعده خلف منضدة حكومية ضخمة، مصنوعة من خشب يشبه الخشب المستخدم في صناعة فلنكات السكة الحديد. قال شيخ الطيب: التربيزة دي الظاهر صنعوها أيام الإنگليز، متينة جدا وثقيلة لا يستطيع ثلاثين رجلا رفعها من الأرض!.

قال شيخ النور مساعد القاضي: الحمدلله إنها متينة وثقيلة مافي زول يقدر يحرّكها. لو كان بتتحرك كان الجماعة بدري باعوها!.

قال شيخ الطيب بفخر بصوت هامس: الليلة حنحاكم كوز كبير سرق سكر التموين!.

ضحك شيخ النور وقال: اليسمع كلامك يقول دي المحكمة العليا. إنت ما حتحاكمه عشان سرق السكر، الحرامية في البلد هم البيحاكموا الناس. إنت حتحاكم زول مشوا ليه مواطنين يسألوه عن حصة السكر ردّ عليهم بالعكاكيز والحجارة!.

قال شيخ الطيب مصرّا على الاحتفاظ بانتصاره البائس: المهم المتهم كوز!.

ضحك النور وقال: غايتو الله أعلم، كان ما نخاف الكضب دي حتكون آخر محكمة ليك! أحسن بعد دا تمشي تشوف ليك شغلة تانية! أنا لو محلّك نأجّل القضية! أو لو لقينا الموضوع ما ماشي كويس نرفع الجلسة للتداول ونكُبّ الزّوغة!.

قال شيخ الطيب: والله لو بقى ترابي ما أخلّيه! بعدين ما تخاف، هو أصلا لو كوز قوي ما بيصلنا هنا، دا كوز درجة تالتة. ديل الجماعة الرّمُوا ليهم العَضُم، لجان شعبية وسكّر وضرائب النخيل. قبل أكتر من عشرة سنة قال منتظر أقرب تعديل وزاري حيعملوه وزير. أها الوزارة عدّلوها مية مرّة وهو لسة في سرقة السكر، لامِنْ خِلقَتُه اتغيّرت، راسُه كِبر وبقى يشبه نمل السكر!.

قال شيخ النور: زمان كان مبتلى يمشي الأسواق يقيف في الزحمة (يدَقّر) للأولاد، كم مرّة الناس مسكوه دقوه! ويحبّ العرس، كل سنة يطلّق واحدة من نسوانه ويتزوّج واحدة جديدة، همّع بقى مجاهد!.

قال القاضي هامسا: يمكن مشى جهاد النكاح!.

المواطن عبد السميع يتقدّم، نادى حاجب المحكمة!.

جاء المواطن عبد السميع. كانت يده المكسورة في جبيرة من جريد النخيل، ولا تزال بعض بقع الدم في جلبابه، كان قد ربط رأسه بالعمامة كأنّ أحدهم شجّ رأسه. سأله القاضي إن كان مصابا أيضا في رأسه، بدا المواطن عبد السميع سعيدا بالسؤال، أكثر من سعادته بجلب الكوز إلى المحكمة، أوضح:

عندي وجع رأس شديد يا مولانا! أسبوع ما شربت شاي ولا قهوة. حاولت أشرب بالبلح لكن ما قدرت. الزول دة حوّل سكر التموين الخاص بالقرية لمصلحته الخاصة. كل القرى في الخط دا استلمَت حصة السكّر وتم توزيعها على المواطنين. إلا بلدنا دي. السكّر مشى وين ما معروف. وَكِت مشينا نسأله السكر وين، استقبلونا هو وأولاده بالعكاكيز وضربونا ضرب غرائب الإبل!.

وفي زول تاني انضرب معاك من ضرب الإبل دا؟

كان معاي نفرين شردوا وكت الضرب كتر علينا، قالوا لي نرجع أحسن ونمشي نعمل بلاغ، ديل ناس كيزان ومفترين، حننضرب وما حنلقى حقنا!.

وين الاتنين الشرَدوا، دايْرِنّهم شهود!.

قال عبد السميع: واحد منهم جارِي لليلة. مسكين قالوا مخُّه ضرب! بقى كلما يشوف عسكري أو زول بدقن يقوم جاري.

والتاني وين؟

التاني في المستشفى، الدكتور قال عنده ارتجاج في المخ!.

تساءل شيخ النور: يعني شنو ارتجاع في المخ!.

قال عبد السميع: ارتجاج، الضرب كان شديد على رأسه. مخّه اتخلبط فوق تحت. كان في حاجات نساها مدفونة في قعر المخّ ليها سنين. جات طالعة فوق. وحاجات جديدة نزلت تحت واندفنت! قبل خمسة سنين كان حصل ليه حادث، وقع من جمل. نسى حاجات كتيرة، من ضمنها ديون. قبل الحادث كان تاجر شاطر،

يحفظ معاملاته كلها في مخه، ما بيسجل أي شيء في الدفتر، يشوفك من بعيد يقول ليك أنا عاوز منك كدا، إنت اشتريت يوم كدة رطلين زيت، ووقية شاي ووقيتين بن! عشان كدا الناس سمّوه: أنا عاوز منك! الناس نست اسمه القديم! بقى أول ما يظهر في مناسبة ولا أيّ محل الناس تقوم جارية قبل ما يفضحهم بالديون! الصراحة كان طالبنا كلّنا، بعد وقع من الجمل نسى كل الديون، حمدنا الله لأن الظروف كانت صعبة الفترة الفاتت، لو لقيت زول ينسى واحد من ديونك، بيكون خفّف عليك شوية لغاية ما يتذكّر بعدين يحلّها الله! في الزمن العلينا دا يا مولانا، لو زول نسى حقُّه العليك، تساعده عشان ما يتذكّر، تغيّر اسمك، تغير شكلك شوية! همّع الدّق بتاع الكيزان طلّع الحاجات القديمة كلها. وكت مشيت أزوره في المستشفى قال لي أنا داير منك ألف جنيه. إنت اشتريت مني تلات مرات سكر وشاي وصابون وزيت بدون تدفع. قبل فترة كنت أدّيته شوّال بلح عشان يبيعه. قلت ليه أخصم الألف جنيه من تمن الشوال وأدّيني الباقي، لقيته نسى إنه استلم مني شوّال بلح! الكيزان حتى وكت يضربوك ضربهم ضرب مضرّة. خلو الزول يتذكّر القروش الدايرها من الناس وينسى حق الناس العليه!.

وجد القاضي قصة الرجل الذي تذكّر ديونه ونسي حقوق الناس عليه، مسلّية. حتى أنه ضحك دون أن ينتبه لاحتمال ضياع هيبة المحكمة. تذكّر بعد أن انفجرت ضحكته في هواء الدَّمِيرة المشبع برائحة الجروف ورائحة المَرِيق، أنه في المحكمة وليس في السوق. فقطّب وجهه وحاول جمع ما يستطيع من ضحكته التي

تناثرت فوق الحضور حتى تطايرت أسراب الحمام التي تبحث عن بقايا الحبوب في باحة السوق أمام المحكمة فزعة. خبط المنضدة العتيقة أمامه ليستعيد هيبة المحكمة وأعلن بغضب: لا بأس، أين المتهم وأولاده!.

تقدّم المتهم، عبدالرسول صلاح الدين.

يبدو أن عبدالرسول لم يكن يؤمن كثيرا بأنه يجب أن (يحدّث) بنعم ربه! كان يكتفي بإخفاء كل النعم التي يحصل عليها. لأن الدنيا ما (دوّامة) حتى أنه كان يختفي من القرية حين تكون هناك مظاهرات في العاصمة تطالب بسقوط الحكومة. وحين يتم إخماد المظاهرات، كان يعود إلى القرية سرا ويواصل حياته، وإذا سأله أحدهم عن غيابه كان يقول إنه قد استُدعي للمشاركة في ضرب الخارجين على القانون!.

قال النور: وينُه القانون اليخرجوا عليه! مافي خارج على القانون غيره هو وجماعته، بعدين مافي زول بيمشي يحارب الخارجين ويسوق معاه أولاده ويشيل معاه عفشه!.

كان يرتدي جلبابا قديما متّسخا تحوّل لونه الأبيض إلى اللون الرمادي بفضل الغبار والعرق.

قال النور بصوت خفيض: زولك مسكين ما فاضي من السرقة وبيع السكر في السوق الأسود عشان يغسل هدومه!.

تفضل يا سيد صلاح الدين. أولادك الاتنين مطلوبين أيضا في المحكمة.

قال صلاح الدين: الولد الكبير عنده ملاريا والتاني مشى مع والدته المستشفى.

كان يبدو متوترا فقد كان يتوقع أن يُعيَّن في منصب كبير وفجأة يجد نفسه في المحكمة، وأي محكمة؟ محكمة شعبية تختص بمنازعات صغيرة وسكارى مساكين، ولصوص صغار تتعذّر رؤيتهم بالعين المجردة، يسرق أكثرهم خبرة حمارا أو ربطة قصب لا يساوي سعرها أكثر من جنيه واحد.

شعر شيخ النور أن الكوز المتوتر قد يسبب مشكلة في المحكمة، فحاول أن يخفّف من توتره، قال موجها الكلام له: طوّلنا ما شفناك يا شيخ عبدالرسول، يظهر المشاغل كثيرة، بعدين شكلك اتغير شوية، بقيت تشبه واحد من الكيزان الكبار، الزول بتاع الدفاع الشعبي!.

تلفّت عبدالرسول حوله محدقا في حضور المحكمة كأنه يبحث عن شخص ما كان يتوقّع حضوره، قبل أن يعلن: الما لقى شبهه الله قبحه!.

نظر شيخ النور إلى جلباب عبدالرسول المتسخ ووجهه المتوتر وقال بسرعة: أهو إنت لقيت شبهك وبرضو الله قبحك! ثم استدرك كلامه بضحكة عالية حاول أن يوحي بها أنه كان يمزح!.

قال عبدالرسول: يا مولانا أنا بَعتبر كلامك دا إهانة في المحكمة. أنا جاهدت في الجنوب وعندي شهادة الداير يشوفها يجيني البيت بورَيها ليه!.

ضحك شيخ النور وقال: أحسن تجيبها هنا المرّة الجاية، لأن البيجيك البيت كله قاعد ينضرب ضرب غرائب الإبل!.

قال شيخ الطيب: كيف يكون إهانة للمحكمة؟ إنت ما معانا في المحكمة!.

لأ ما تفهم غلط يا مولانا، أنا ما قلت إهانة للمحكمة، أنا قلت إهانة في المحكمة. يعني إهانة لمواطن محترم في داخل المحكمة.

ضحك شيخ النور وقال بصوت خفيض: وين في كوز محترم؟! ثم تنحنح ونظر حواليه خوفا أن يكون أحدهم سمعه!.

حاول القاضي تجاوز نقطة إهانة الشاكي إلى موضوع القضية:

الناس ديل مقدّمين بلاغ أنهم تعرّضوا للضرب منكم؟. ممكن توضح للمحكمة الحصل لو سمحت؟.

قال عبد الرسول: نحن كنّا في حالة دفاع عن النفس! الجماعة ديل اعتدوا علينا، والدِّين بيقول: من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم.

ممكن توضح كيف اعتدوا عليكم؟

هاجمونا ونحن آمنين في بيتنا.

الناس ديل بيقولوا إنهم جوا يسألوك من سكر التموين، بيقولو إن حصتهم من السكر اتباعت في السوق الأسود!.

قال عبد الرسول وكأنه يتخذ قرارا نهائيا: أسود أحمر أبيض ما ليهم دخل. نحن شغالين لمصلحة الدولة العليا!.

قال القاضي: نرجع للقضية. الحصل شنو؟.

قال عبد الرسول: أنا زول مجاهد حاربت في الجنوب، يجي واحد زي دا يتهمني بسرقة السكر؟!.

قال القاضي: نحن ما عندنا دخل بالسكر، في جهات تانية مختصّة بالموضوع دا. نحن هنا قضيتنا الناس ديل اعتديت عليهم ولا لأ؟.

أعلن المتهم: ما اعتديت عليهم!.

والدم الفي جلابية الزول دا شنو؟ ويده المكسورة! واعترافك إنكم رديتو العدوان؟!.

الزول دة قاصِدْني، قال داير قطعة واطة لولده. جانا بعد عملنا الخطة الإسكانية. قلنا ليه الخطة خلصت، قدّم بعد سنة نكون بدينا الخطة التانية. دي بلد زراعية لو وزّعناها كلها سكن، الناس حيزرعوا وين؟ ولا يبقى القمح زي الجرجير يزرعوه في حيشان البيوت؟!.

تدخّل المواطن عبد السميع بدون إذن القاضي: إنت كذّاب. إنت الشغّال توزع في الأراضي الزراعية الحكومية وتبيعها. المشروع التعاوني نزعتوا نصف أراضيه الحكومية وبعتوها للمغتربين سكن، كان ممكن توزّعوا ليهم في الخلاء شرق القرية أراضي غير صالحة للزراعة، لكن إنت داير تستفيد، عارف الأرض هنا سعرها غالي! ومشروع الشجرة الكانت البلد دي وكل القرى المجاورة عايشة منه، دخّلتوا أصحابه السجن وغشّيتوا الناس قلتوا حنعمله

مشروع تعاوني وبعتوه لمستثمر عربي! والقروش في جيوبكم، إنتو قايلين نحن نايمين؟.

إنت بتتّهمني بالسرقة؟ إنت نسيت إنك طول عمرك متهرّب من دفع الضرائب والزكاة ولولا تقديرنا لظروفك وظروف أولادك الصغار كان دخلناك السجن!.

خبط القاضي المنضدة لوقف المشاجرة، لكن شيخ النور لكزه بيده: خليهم! دي فرصة نسمع فضايح الكوز دا، أنا أول مرة أعرف بقصة المستثمر العربي دي!.

قال القاضي همسا: الجماعة جوا وزرعوا البرسيم، إنت ما عندك خبر الحاصل في البلد؟. قال النور: ما تجيبوا لي المستثمر العربي دا أبيع ليه حتة واطة، تعبت من الزراعة بدون فائدة!.

انتبه القاضي على صوت عبد الرسول وهو يتقدّم محاولا الاعتداء على المواطن عبد السميع: تمسك خشمك ولا أكسر ليك يدك التانية كمان!.

قال القاضي: دي محاولة للاعتداء على مواطن في المحكمة واعتراف بأنك اعتديت عليه، بما إنك اعترفت بكسر يده الأولى!.

قال عبدالرسول: أنا جاهدت في الجنوب وعندي شهادة مجاهد و...

قال القاضي: جاهدت في الجنوب جاهدت في الشمال، دي ما شغلتنا هنا، الزول دا والجماعة المعاه ضربتهم ليه؟.

أنا جاهدت في الجنوب، يجي واحد يتهمني قدّام أولادي

بسرقة السكر؟! أعمل ليه شنو، أضرب ليه تعظيم ولا أجيب ليهم قهوة!.

حكمت المحكمة حضوريا على المتهم عبد الرسول صلاح الدين بالسجن شهر والغرامة عشرة آلاف جنيه تعويض للمجني عليهم وتحمُّل منصرفات علاجهم.

رُفعت الجلسة.

يحيا العدل.

تأهّب القاضي والحضور للانصراف من المكان، بينما بقى الكوز في مكانه يردّد:

أنا جاهدت في الجنوب، يجي واحد زي دا يحكم علي بالسجن؟ أنا عندي شهادة...

السرقة مباحة أثناء خسوف القمر

افتتح القاضي المحكمة الشعبية: لا بأس، نبدأ. وأشار للحاجب لينادي على القضية الأولى.

نادى عبد العاطي على الشاكي الأول حسن الأعور، الذي أعلن دون مقدّمات ودون أن ينتظر القاضي ليسأله عن مشكلته: الحنين سرق مني ربطة قصب!.

مسح القاضي وجهه الضخم من العرق بمنديل أبيض ضخم ولوّح به كأنه يرفع راية استسلام أمام القيظ: ربطة واحدة فقط؟.

دا العرفناه يا مولانا، يمكن سرق قبل كدا، ويمكن يسرق تاني. لكن الناس شافوه يوم خسوف القمر. الأولاد في الشارع شافوه منتظر أول الدنيا أظلمت بعد الخسوف والناس انشغلت بدقّ الصفايح عشان يساعدوا القمر يمرق بسرعة. واحد من الأولاد شافُه بالصدفة وهو بيسرق ربطة قصب من سقف بيتي!.

قال القاضي: لكن ربطة دي حاجة رخيصة، والزول دا لو ما محتاج ما كان حيسرق القصب. ممكن تعافيه المرة دي وأنا بجاملك في القضية الجاية!.

تجاملني في شنو يا مولانا، محكمة دي ولا سوق السبت؟ الزول دا متعوّد دائما يسرق القصب. في الصيف قلت ليه تعال أزرع معاي شوية مريق على الأقل تستفيد بالقصب للبهائم لكن رفض، قال لي الصيف ما للشغل، للراحة، كفاية علينا التعب في الشتاء!.

قال شيخ النور مساعد القاضي: اعتبرها زكاة! بعدين ما دام الراجل دا ما بيسرقك إلا وقت خسوف القمر ما مشكلة لأن الخسوف بيحصل مرة كل عدة سنين!.

قال الحنين: الزكاة دفعناها. ناس الزكاة بقوا ينتظروا المحصول قبل نجمعوا في الشوالات ويقسموا حقّهم! وكت احتجت في الصيف ولدي مِرِض ومحتاج عملية زايدة مشيت ليهم قالوا ما عندهم، القروش مشت كلها للعاملين عليها!.

قال القاضي: كدا خلينا يا زول من شغل السياسة دا، إنت داير تقطع عيشنا ولا شنو؟.

واصل الحنين: بعدين لو هو التزم يسرق القصب فقط وقت يكون في خسوف ما عندي مانع، لكن الضمان شنو يكون بيسرق في أيام الظلام وكت القمر يغيب بدري؟.

قال القاضي مبتسما: ما مشكلة نحن ممكن نخلّيه يتعهّد قدّام الناس ديل ما يسرق القصب إلا وقت خسوف القمر.

أشار القاضي لعبد العاطي فنادى بصوته: المتهم الحنين.

جاء الحنين. كان يبدو مسكينا وضعيفا لا يقوى ولا حتى على رفع عود قصب واحد من الأرض. حتى الجلباب الممزق الأطراف

الذي يرتديه كان يبدو كأنه يسير وحده ولا يوجد إنسان في داخله.

قال القاضي: أها يا الحنين. إنت سرقت القصب؟.

قال الحنين ببساطة وكأنه يرد على السلام: نعم!.

شعر شيخ الطيب بخيبة أمل من سرعة الاعتراف الذي كان يأمل في انتزاعه بعد استدعاء الشهود وبعد عدة أسئلة ومداولات.

كانت لديه عدة أسئلة حول مكان وجوده لحظة ارتكاب السرقة، لم يعد لها معنى. فكّر قليلا وسأل سؤالا غير ذكي: وسرقت ليه!.

صمت الحنين وقال: والله قسمة ربنا بس!.

ضحك شيخ النور وقال: دي ما قسمة ربنا، براك قسمت لي نفسك!.

قال شيخ الطيب بلهجة تحقيقية ليعوّض عن الاعتراف السريع: لازم يكون في سبب قوي. عشان الرجل دا مقدّم شكوى ضدك!.

قال الحنين: يعني القسمة ما سبب قوي؟.

تحير القاضي قليلا، حاول أن يلقي محاضرة يستعين فيها بإرثه من دراسة الفقه، لكنه اكتشف أنه لا يذكر شيئا من الأحاديث التي يمكنه أن يفند بها دعاوي الحنين لتأصيل سرقة القصب. سحب كرسيه للخلف قليلا وأعطى المتهم عدة خيارات ليسهل له الإجابة بعيدا عن إلقاء تبعة ما اقترفته يداه على القسمة والنصيب:

لا، إنت وَكِت مشيت تسرق القصب كنت محتاج مثلا، البقرة

جيعانة؟ داير تعمل راكوبة في البيت؟ كنت مستلف قصب من زول جا ضايقك عاوز ترجعها ليه؟ زوجتك قالت ليك جيب قصب عشان نولع بيه النار لعمل العشاء؟ وبعدين ليه اخترت وكت الخسوف للسرقة؟.

بدا الحنين مترددا، كأن خيارات القاضي لم تنطبق كلها على سرقته. حاول التمسك بمسألة القسمة حتى لا يُتهم بتغيير أقواله، فكر قليلا ثم قال: والله القسمة ودّتني مراح البهائم، مع أن دائما الأولاد بيعشّوا البهائم ويحلبوا البقرة، يوم الخسوف كنت ماشي أسهر مع رضوان في الحلة بحري، رضوان قال لي: سكر يوم الكسوف ما بينفع، بننسخط لو سكرنا. عشان كدة رجعت بدري! لقيت البقرة جيعانة، ما قدرت أحلبها، بعدين الأولاد الصغار كانوا جعانين، الكبار مشوا اتعشّوا في كرامة الخسوف في المسيد. مشيت اسرق قصب من جنينة العمدة، هناك القصب كتير مافي زول حيعرف إن في ربطة اتسرقت، لكن لقيت المحل ملان بالأولاد جايين عشان الخسوف. كل محلات القصب لقيتها ملانة بالشفع. جيت ماري جنب بيت حسن الأعور لقيت الأولاد قاعدين في الشارع قدّام البيت منتظرين الخسوف. قررت خلاص أرجع أو أمشي الحوّاشات أحاول ألقى شوية قش رغم إن اليومين ديل مافي حاجة، ناس الرعي ما خلوا حاجة في الحوّاشات. في اللحظة دي القمر غاب والدنيا بقت ظلام. انتهزت الفرصة قلت مافي زول حيشوفني.

لكن الكلام دا حرام! قال القاضي.

قال الحنين: حرام شنو؟ في زول من ناس الحكومة ديل قالوا سرق بلد كاملة باعها بناسها وبهائمها! بقت على ربطة القصب بتاعتي دي؟.

تجاهل القاضي كلامه حول السرقة الحكومية وقال: كان ممكن تستأذن الزول دا وتستلف منه القصب!.

قال الحنين: أستاذنت منه كتير. آخر مرة قبل أيام قال لي ما عندي قصب، العندي ما حيكفيني لغاية نهاية الموسم!.

وقف حسن الأعور وقال:

الزول دا يا مولانا لازم يتسجن ويدفع لي تعويض، الزول دا قبل كدا سارق مني حمار!.

قال القاضي: الشهود اثبتوا الزول دا كان مريض وعنده ملاريا وكت حمارك اتسرق. ودي بلد مفتوحة، تجار حمير مارّين ممكن يسوقوا حمارك وسطهم بدون زول يلاحظ، وإنت حمارك مطلوق اليوم كله، الناس كلها تشتكي إن حمارك كان بيتلف الزراعة، عشان كدا الناس فرحت وكت حمارك اتسرق!.

إنت فرحان يا مولانا عشان حماري اتسرق؟ إنت مفروض رجل قانون ترجّع المسروق، مش تفرح وكت الناس تسرق!.

قال القاضي: أنا ما فرحت، قلت ليك بعض الناس فرحوا لأن حمارك كان معذّبهم، أكل برسيم الناس ودخل الحواشات أتلف الزراعة!.

لم يفنّد حسن الأعور اتهام حماره المسروق بإتلاف المزروعات،

أصرّ على اتهام الحنين:

الزول دة سِكِر بحماري!.

قال القاضي: كيف الزّول يسكر بالحمار؟ قصدك ركب الحمار مشى سِكِر بيه؟

لأ، سرق الحمار وباعه ومشى اشترى بالقروش العرَقي!.

قال شيخ النور: لو عندك شهود جيبهم يشهدوا الزول دا سكر بحمارك، أو دا حنعتبره قذف!.

قذف شنو؟ أنا عمري ما جدعت الحجر. بالعكس زمان وكت كنت فنان بغني في الأعراس الناس جدّعوني بالحجارة، في الأول كنت بصبر عليهم وبرد عليهم بالغناء، لكن وكت الضرب كتر بقيت أردم الحجارة جنبي قبل ما أبدا الغناء، ولو أي واحد رماني بحجر بضربه أنا كمان بالحجر وما بوقّف الغنا. بكون بغني وأضرب والزول يكون جاري من ضرب الحجر وبيرقص من الغنا في نفس الوقت!.

قذف يعني اتّهمت الزول بالكِضِب.

كِضِب كيف؟ الزول اعترف قدامكم!.

اعترف بالقصب ما بالعرَقي.

ما خلاص! زول معترف بالسرقة غالبُه شنو يجيب العرَقي يسكر بيه؟!.

بادره القاضي: وإنت عرفت كيف إنه باع الحمار وسِكِر

بقروشه؟.

تردّد حسن الأعور قليلا، وتلفّت حواليه كأنه يحصي عدد من سيشهدون فضيحة اعترافه قبل أن يعلن: ستّ العرَقي قالت لي!.

قال القاضي: والودّاك محل العرَقي شنو؟.

ما مشيت أيّ محل يا مولانا، ستّ العرَقي دي إلا أمشي أشتري منها؟ يمكن قابلتها في السوق!.

وستّ العرَقي القابلتها في السوق دي، شافت الزول دة وهو بيبيع الحمار ويجي يشتري العرَقي؟!.

لأ، لكن وكت اشترى العرَقي طلّع من جيبه قروش كتيرة دفع منها تمن العرَقي، ستّ العرّقي قالت ليه: بعت التمر؟.

قال ليها لأ، دي قروش حرام عشان كدا بدفع منها تمن العرّقي، عشان يذهب الحرام من حيث أتى!.

ضحك شيخ النور وقال: وأي قروش حرام معناها قروش حمارك؟.

قال القاضي مصرّا: وإنت الودّاك لستّ العرَقي شنو؟ معقول حتحكي ليك الكلام دة كله في السوق؟.

فرغ صبر حسن الأعور: مشيت سكرت يا مولانا. ولو أنا ما سكرت يا مولانا إنت حتشتغل شنو؟ عندك شهود ناديهم وأجلدني!.

حكمت المحكمة بالحبس ثلاثة أيام على حسن الأعور لإهانته

المحكمة الموقرة. وبغرامة عشرة جنيهات على الحنين لسرقته ربطة قصب، على أن يعوَّض الشاكي بمبلغ خمسة جنيهات.

قال الحنين: عشرة جنيه عشان ربطة قصب؟ دا حكم جائر يا مولانا!.

مسح مولانا العرق الغزير من وجهه ولوّح بمنديله الأبيض الضخم مستسلما للقيظ، وقال: دي قسمة يا الحنين، ليه سرقتك تبقى قسمة وحكمنا يبقى جائر؟.

رُفعت الجلسة.